غزوة العُسرة (٩هـ/ ٦٣٠م)

"دراسة نقدية"

أ. د. محمد بن فارس الجميل
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

تُعدُ غزوة العُسرة (غزوة تبوك)، آخر غزوة قادها الرسول ﷺ، وجند لها أكبر جيش عرفه المسلمون في تلك الفترة، وقطع خلالها مسافة طويلة تقارب (٨٠٠ كيلاً)، وهي أطول مسافة بلغها جيش المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ، حيث وصل إلى أطراف الشام.

وقد تمت الاستعدادات بتجهيز تلك الغزوة في ظروف استثنائية، بالغة القسوة من حيث الوقت الذي حدثت فيه، أي في حَمَّارة القيظ، وحين حان وقت جني الثمار، وفي ظروف مادية شديدة الصعوبة، حتى أن بعض النساء اضطررن للتبرع بحليهن إسهامًا منهن في تمويل الغزوة. وهي المرة الأولى في تاريخ غزوات الرسول ﷺ التي تدعو فيها الحاجة للاستعانة بما تتصدق به النساء من الحُلي ونحوها. ولا ريب أن هذا مؤشر دقيق على مدى خطورة الغزوة وأهميتها وصعوبة الظروف الزمانية والأحوال المادية التي رافقت ذلك.

(قدم للنشر في ١٤٣٢/١٢/٢٧هـ، وقبل للنشر في ١٤٣٣/٨/١٠هـ).

لقد ذكرت المصادر المختلفة روايات متعارضة حول أسباب غزوة العُسرة وأهدافها، ولكن من الواضح أن تلك المصادر لم تصل إلى أجوبة مرضية، وذلك على الأقل من وجهة نظر الباحث. وعلى الرغم من أن بعض الدراسات الحديثة قد تناولت غزوة العُسرة بقدر وافر من الاهتمام إلا أنها في معظمها ظلت قاصرة عن تقديم أجوبة مقنعة عن الأسئلة المطروحة.

لذلك فإن هذا البحث يحاول إثارة بعض الأسئلة المتعلقة بالغزوة، ويحاول الإجابة عنها، بقدر ما تسعف به المادة العلمية، ويمكن تلخيص الأسئلة على النحو التالي:

- هل يمكن تسمية الغزوة: غزوة تبوك أم غزوة العُسرة؟ أم غزوة الروم؟
- هل كانت الغزوة موجهة إلى تبوك أم إلى الشام؟
- هل همَّ الإمبراطور البيزنطي بغزو المدينة فعلاً؟
- هل كان خروج المسلمين لمواجهة الروم استجابة لأمر إلهي أم بسبب الشعور بالخطر وحسب؟
- وماذا عن جهود المسلمين في الإنفاق على جيش العُسرة؟
- وماذا عن مواقف المنافقين من الغزوة؟
- وأخيرًا، ما الأهداف التي تحققت من خلال تلك الغزوة؟

١ - غزوة العُسرة (غزوة تبوك):

قبل الحديث عن غزوة العُسرة وما جرى قبلها وخلالها من أحداث، لا بد من التعريف بتبوك، لأنها المكان الذي انتهت إليه الغزوة، لذلك فقد اشتهرت الغزوة بغزوة تبوك.

تبوك: "موقع بين وادي القرى والشام، وقال أبو زيد: تبوك، بين الحِجْر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر ... وهو حصن به عين ونخل وحائط"(١).

أما تبوك في الوقت الحاضر: فهي مدينة من مدن شمال الحجاز الرئيسة، وهي تبعد عن المدينة شمالاً نحو (٧٧٨ كيلاً) على طريق معبدة تمر بخيبر وتيماء(٢).

والسؤال هنا يتعلق بمسمى الغزوة، أي هل يمكن تسميتها بغزوة تبوك على ما هو مشهور؟ أم غزوة الشام أي الروم؟ أم غزوة العُسرة؟ من الواضح أن سورة التوبة التي أشارت في بعض آياتها إلى الغزوة لم تشر إلى تبوك ولا إلى الشام والروم، وإنما أشارت إلى ساعة العُسرة. لقوله تعالى: ﴿**لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ**﴾ [التوبة: ١١٧].

وفي أثناء استعداد الرسول ﷺ للغزوة لم يشر إلى تبوك، بل أمر أصحابه بالتهيُّؤ لغزو الروم(٣). وقبل ليلة من

(١) ياقوت بن عبدالله الحموي، معجم البلدان (بيروت: دار صادر ودار بيروت، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م)؛ وانظر عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، الطبعة الثالثة (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ١/ ٣٠٣.

(٢) عاتق بن غيث البلادي، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، الطبعة الأولى (مكة: دار مكة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ص٥٩ - ٦٠. وانظر موقع تبوك على الخارطة في الملحق رقم (١).

(٣) عبدالملك بن هشام الحميري، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، الطبعة الثانية (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)؛ وقارن محمد بن سعد البصري، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر، د.ت) ٢/ ١٦٥.

وصول رسول الله ﷺ إلى تبوك أشار إليها بقوله: "إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تنالوها حتى يضحى النهار ..."(٤).

لذلك فإن الإشارة إلى تبوك جاءت عرضًا وقبل أن يحط بها الجيش رحاله بوقت قصير، لأن تبوك لم تكن الهدف المنشود، أي أن الغزوة لم تكن موجهة إلى تبوك أصلاً. وبناءً على ذلك فإنه لم يكن لعين تبوك علاقة باسم الغزوة أي غزوة تبوك كما زعم السُهيلي: "... وبذلك سميت بعين تبوك أي [الغزوة] والبَوْكُ: كالنقش والحَفْر"(٥). وليست كما جاء عند البكري: "أن رسول الله ﷺ جاء في غزوة تبوك وهم يبوكون حِسْيَها بقِدْح، فقال: ما زلتم تبوكونها بعد؟ [أي تحركونها] فسميت تبوك"(٦). وهي كذلك لا يمكن تسميتها بغزوة الشام أو الروم لأن المسلمين لم يصلوا إلى الشام ولم

---

(٤) انظر مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د. ت)، ص١٤٣ - ١٤٤، كتاب قصر الصلاة في السفر (ح: ٢)؛ مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ٤/ ١٧٨٤ - ١٧٨٥، كتاب الفضائل (ح: ١٠)؛ وقارن محمد بن عمر الواقدي، المغازي، تحقيق: مارسدن جونز، الطبعة الثالثة (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) ٣/ ١٠١٢.

(٥) عبدالرحمن بن عبدالله السُهيلي، الروض الأُنُف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد (القاهرة: مؤسسة مختار، د. ت) ٢/ ١٩٥.

(٦) البكري، معجم ما استعجم، ٢/ ٣٠٣؛ وقارن محمود بن عمر الزمخشري، الفائق في غريب الحديث، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم وعلي البجاوي (بيروت: دار المعرفة، د. ت) ١/ ١٣٢.

يحصل بينهم وبين جند الروم أي اشتباك. لذلك فإن الغزوة كانت في أصلها موجهة إلى الشام ولكنها توقفت في تبوك؛ ولهذا أُطلق عليها غزوة تبوك. وبناءً على ما تقدم، لعل الأكثر ملاءمة هو تسميتها "غزوة العُسرة" تأسيسًا على ما أوحت به الآية (١١٧) من سورة التوبة والمقصود بالعُسرة هنا كما جاء عند ابن إسحاق (ت١٥١هـ) قوله: "وذلك في زمان من عُسرة الناس، وشِدّة من الحر، وجَدْب من البلاد، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ..."[٧].

٢ - وقت الغزوة:

اختلفت الروايات بشأن وقت الغزوة، فقد جاء عند ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) أنه لما رجع أبو بكر من الحج غزا رسول الله ﷺ تبوك[٨]. ومعلوم أن حج أبي بكر بالناس كان في السنة التاسعة، أي بعد عودة رسول الله ﷺ من تبوك[٩].

(٧) ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٦٩؛ الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٢؛ وقارن علي بن الحسين بن علي المسعودي؛ التنبيه والإشراف (بيروت: دار مكتبة الهلال، ١٩٨١م)، ص٢٥١. وبخصوص مسمى الغزوة، انظر محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري (الرياض: مكتبة دار السلام، ١٤١٧هـ) حيث جاء فيه: باب غزوة تبوك، وهي غزوة العُسْرة، ص٩٠٨ (ح: ٤٤١٥).

(٨) محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، المغازي النبوية، تحقيق: سهيل زكار، الطبعة الأولى (دمشق: دار الفكر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ص٧٥.

(٩) ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٩٧-١٩٨؛ ابن سعد، الطبقات، ٢/ ١٦٨ - ١٦٩؛ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة (القاهرة: دار المعارف، د. ت) ٣/ ١٢٢ ؛ وانظر ما جاء عن تسمية الغزوة: عبدالقادر حبيب الله السندي، الذهب المسبوك في تحقيق غزوة تبوك (الكويت: مكتبة الكويت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص٤٣-٥٧.

أما موسى بن عقبة (ت ١٤١هـ) فإنه لم يحدد تاريخًا بعينه بل اكتفى بالقول: إن الغزوة حدثت في حر شَديد، وليالي الخريف، والناس خارفون في نخيلهم[١٠] ولم يذكر الشهر الذي وقعت فيه، ويعلق الحلبي (ت ١٠٤٤هـ) على ذلك قائلاً: وكونه عند طيب الثمار (إنما يؤيد قول عروة بن الزبير، أن خروجه ﷺ كان في زمن الخريف، ولا ينافي ذلك وجود الحر في ذلك الزمن لأن أوائل الخريف وهو الميزان يكون فيه الحر[١١]. أما ابن إسحاق فإنه يؤرخ لهذه الغزوة في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة[١٢]، ولعله أول من حدد

(١٠) موسى بن عقبة، المغازي، جمع ودراسة محمد باقشيش أبومالك (الرباط: مطبعة المعارف، ١٩٩٤م)، ص٣٠٧. "والخريف: أحد فصول السنة، وهي ثلاثة أشهر من آخر القيظ وأول الشتاء، سُمي خريفًا لأنه تخرف فيه الثمار أي تجتنى. والخريف: أول ما يبدأ من المطر في إقبال الشتاء..". انظر: محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب (بيروت: دار صادر)، مادة "خرف"، ٩/ ٦٢-٦٥.

(١١) علي بن برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (د. م، دار المعرفة، د. ت) ٣/ ٩٩.

(١٢) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٦٩؛ الطبري، تاريخ، ٣/ ١٠٠ - ١٠١. ومما تجدر الإشارة إليه أن ان إسحاق ربما هو أول مؤرخ ذكر الشهر الذي وقعت فيه الغزوة أي شهر رجب، ثم تلاه بقية المؤرخين. بينما يلاحظ أن موسى بن عقبة (ص٢٩٤) والواقدي (٣/ ٩٨٩)، ومحمد بن حبان البستي، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، تحقيق: السيد عزيز بك وجماعة (بيروت: دار الكتب الثقافية، ١٤٠٧هـ)، ص٣٦٦، كل أولئك لم يذكروا الشهر الذي وقعت فيه الغزوة. بل إن أكرم ضياء العمري، وهو الذي ألف كتابه: السيرة النبوية الصحيحة، محاولة لتطبيق قواعد المحدثين، لم يحقق تاريخ الغزوة بل اكتفى بما جاء عند ابن حجر العسقلاني رواية عن ابن عائذ صاحب المغازي "..بإسناد ضعيف" أن الغزوة وقعت في شهر رجب. والملاحظ أن العمري =

الشـهـر الذي تمت فـيـه الـغـزوة أي "رجب" من المؤرخين الذين وصلت إلينا رواياتهم.

ومن اللافت هنا أن الواقـدي (ت ٢٠٧هـ) لم يؤرخ للغـزوة، علمًا بأنه تحدث عنها وعن تفاصيلها حـديثًا مـسهـبًا[١٣]. وعلى النقيض من ذلك نجد أن كـاتبه مـحـمـد بن سـعـد (ت ٢٣٢هـ) يذكـر أن الغـزوة حدثت في رجب من السـنة التـاسـعة من الهـجرة[١٤]. ولم يذكـر مصـدره، ولعله كان ينقل عن رواية ابن إسحاق.

أمـا مـحـمـد بن حـبـيب (ت ٢٤٥هـ) فـهـو يتـفق مع أشـهـر الروايات في تحـديد سنة الغـزوة أي السنة التـاسـعـة من الهـجـرة، ولكنه يختلف عن بقيـة الروايات في التفـاصيل أي أوقـات الخـروج للغـزوة والعـودة منهـا، إذ يقـرر أن النبي ﷺ خـرج إليـهـا أي الغـزوة في يوم الإثنين غـرة رجب ورجع سلخ شـوال[١٥]. ويؤخـذ على هذه الـرواية أن صـاحـبـهـا لم يذكـر مصدرها، إضافة إلى أنها تتعارض مع وقائع الأحداث خاصة فيـما يتـصل بالعودة، وأنها كانت بانقضـاء شـهـر شـوال؛ فقد ذكـر ابن إسـحـاق أن رسـول الله ﷺ قدم المدينة من تبوك في

= لم يلتفت لرواية ابن إسحاق في السيرة القائلة إن الغزوة تمت في شهر رجب! انظر العمري، السيرة النبوية الصحيحة، الطبعة الأولى (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٦/١٩٩٥م) ٢/٥٢٢، كل هذا يفسح مجالاً للشك في الشهر الذي وقعت فيه غزوة العُسرة (تبوك).

(١٣) انظر الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٨٩ - ١٠٧٦.

(١٤) ابن سعد، الطبقات، ٢/ ١٦٥ - ١٦٦.

(١٥) محمد بن حبيب، المحبَّر، تحقيق: إيلزه ليختن شتيتر (بيروت: دار الآفاق الجديدة، د. ت)، ص١١٦.

شهر رمضان، وقدم عليه في ذلك الشهر وفد ثقيف[١٦]. ولعل ما يؤكد رواية ابن إسحاق هو ما جاء على لسان أحد رجال وفد ثقيف إذ قال: "كان بلال يأتينا حين أسلمنا وصمنا مع رسول الله ﷺ ما بقي من رمضان بفطرنا وسحورنا من عند رسول الله ﷺ"[١٧].

يظهر من عرض الروايات السابقة ذات الصلة بتاريخ غزوة العسرة ووقتها أنها كانت في رجب من السنة التاسعة للهجرة، وأن العودة إلى المدينة كانت في شهر رمضان، ولا عبرة لما جاء عند ابن حبيب، ومن الواضح هنا أنه لا يوجد تحديد لليوم ولا التاريخ الذي خرج فيه رسول الله ﷺ للغزوة بل الإشارة هنا إلى شهر رجب على إطلاقه وكذلك القول فيما يتعلق بيوم العودة وتاريخها، إذ اقتصرت الروايات على الإشارة أنها كانت في شهر رمضان من السنة التاسعة للهجرة.

وبصرف النظر عما قيل عن الشهر الذي وقعت فيه الغزوة وعن الشهر الذي عاد فيه الرسول ﷺ إلى المدينة، فإنه لا بد من التوقف عند ما قيل عن شهر رجب وأنه كان شديد الحر "حَمَّارة القيظ" وقد سبق أن ذكر موسى بن عقبة أن الغزوة

---

(١٦) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٩٤؛ الواقدي، المغازي، ٣/ ١٠٥٦.

(١٧) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٩٤؛ وقارن أحمد بن الحسين البيهقي، دلائل النبوة وأحوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبدالمعطي القلعجي، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ٥/ ٣٠٥.

كانت في الخريف، وعلق الحلبي على ذلك بقوله وهذا يؤيد قول عروة بن الزبير... لأن أوائل الخريف وهو الميزان يكون فيه الحر. لا بد من التوضيح هنا أن برج الميزان يقع بين شهري سبتمبر وأكتوبر أي (٢٣ سبتمبر - ٢٢ أكتوبر) ومعلوم أن هذه الأشهر ليست من شهور الصيف، بل هي من شهور الخريف وطلائع الشتاء.

والأمر الآخر الذي يجب التنبيه إليه هو أن بداية السنة الهجرية أي المحرم من السنة التاسعة (٩هـ/ ٦٣٠م) يقابله في الأشهر الميلادية شهر أبريل أي الشهر الرابع. وهذا يعني بعملية حسابية بسيطة أن ما يقابل شهر رجب في السنة التاسعة من الهجرة هو شهر أكتوبر، وأن ما يقابل شعبان هو شهر نوفمبر وعاد الرسول ﷺ من تبوك في رمضان، أي في شهر ديسمبر آخر شهر في السنة الميلادية أي في الشتاء!

لذلك فإن النتيجة التي يمكن تسجيلها هنا هي أن الغزوة لم تقع في شهر رجب كما جاء في بعض الروايات، والاحتمال الأقوى أنها وقعت في شهري ربيع الثاني أو جمادى الأولى، اللذين يقابلهما في التاريخ الميلادي شهري يوليو وأغسطس حيث شدة الحر وموسم الخراف ووقت جني الرطب. لذلك يجب إعادة النظر في تحديد وقت الغزوة.

٣ - ما قيل عن أسباب الغزوة:

اختلفت المصادر التاريخية في ذكر أسباب غزوة العسرة اختلافًا بينًا، حتى أن بعضها لم يذكر سببًا مقبولاً لتلك الغزوة! فمثلاً موسى بن عقبة وهو أحد المصادر المتقدمة،

قال: وخرج رسول الله ﷺ حين خرج يريد الشام وكفار العرب، فكان أقصى أثره منزله من تبوك[١٨]. وهو هنا لا يذكر سبب توجه الرسول ﷺ إلى الشام وكفار العرب. أي هل كان الرسول ﷺ يريد دعوتهم للإسلام؟ أم أنه يريد القضاء على خطرهم؟ أم ماذا؟ ويلاحظ كذلك أن ابن إسحاق يذكر أن الرسول ﷺ أمر أصحابه بالتهيُّؤ لغزو الروم[١٩]. ولكنه لا يقدم إجابة عن السبب الحقيقي، أي لماذا قرر غزو الروم؟

أما الواقدي فلديه سبب ربما أكثر وجاهة وقبولاً إذا ثبتت صحته؛ وهو أن الأنباط الذين يتاجرون بين الشام والمدينة، ذكروا أن الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام، وأن هرقل رزق أصحابه لسنة وأجلبت معه بعض القبائل العربية، مثل: لخم وجذام وغسان وعاملة، وأن مقدمة جيشهم زحفت تلقاء البلقاء[٢٠] وعسكروا بها، ولم يكن من ذلك شيء إنما قيل لهم فقالوه[٢١].

ويذكر اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ تقريبًا) سببًا آخر لغزوة العُسرة بعيد الاحتمال وهو أن رسول الله ﷺ خرج في جمع كثير إلى تبوك من أرض الشام، يطلب بدم جعفر بن أبي طالب[٢٢].

(١٨) موسى بن عقبة، المغازي، ص٢٩٦.

(١٩) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٦٩.

(٢٠) البلقاء: إقليم من أرض الشام في المملكة الأردنية الهاشمية، وهو الإقليم الذي تتوسطه مدينة عمان عاصمة الأردن ...". البلادي، معجم المعالم الجغرافية، ص٤٩.

(٢١) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٠؛ ابن سعد، الطبقات، ٢/ ١٦٥.

(٢٢) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي (بيروت: دار بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) ٢/ ٦٧.

ويبـدو على البـلاذري (ت ٢٧٩هـ) التـأثر برواية الواقـدي ولكنه يضيف إليها خوف الروم من رسول الله ﷺ حين علموا قـربه من بلادهم، لذلك فـقـد هابوا مـحاربتـه فلم يلق كـيدًا، وأتته رُسل هرقل فكساهم وردهم(٢٣).

أما البيهقي (ت ٤٥٨هـ) فيذكر أن سبب خروج النبي ﷺ إلى تبوك [في غزوة العُسرة] أن اليهود أتوه يومًا، وقالوا له: "يا أبا القاسم! إن كنت صادقًا أنك نبي فالحق بالشام، فإنها أرض المحشر وأرض الأنبياء، فصدّق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك، لا يريد إلا الشام"(٢٤).

وهذا السبب الذي ذكره البيهقي، سبب ظاهر التهافت حيث إن للرسول ﷺ من الحكمة ونفاذ البصيرة ما يعصمه من الانسياق وراء استفزازات اليهود ومكرهم. ومن المستبعد جدًا أن يجرد الرسول ﷺ هذا الجيش الكبير في مثل تلك الظروف الصعبة استجابة لمقولة يهود ليثبت لهم أنه نبي فحسب. إضافة إلى أنه لم يعد بالمدينة من اليهود حينذاك من له خطر سياسي أو ديني حتى يستثير النبي ﷺ ويتحداه ويشكك في نبوته.

(٢٣) أحمد بن يحيى البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله، الطبعة الثالثة (القاهرة: دار المعارف، د. ت) ١/ ٣٦٨.

(٢٤) البيهقي، دلائل النبوة، ٥/ ٣٥٤؛ محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سُبُل الهُدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م) ٥/ ٤٣٣.

وكذلك فإن ابن كثير ينكر ما زعمه البيهقي عن سبب خروج النبي ﷺ إلى تبوك وأنه بسبب تأثير اليهود؛ حيث قال: وفي هذا الإسناد نظر، والأظهر أن هذا ليس بصحيح، فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود؛ وإنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٢٩][٢٥]، يضاف إلى ذلك أن سورة الإسراء من سور العهد المكي.

وشبيه بهذه الرواية ما روي عن الصحابي عمران بن حُصين (ت ٥٢هـ) تقريبًا[٢٦]، من أن نصارى العرب كتبت إلى هرقل، أن هذا الرجل الذي خرج يدعي النبوة قد هلك... فبعث رجلاً من عظمائهم وجهز معه أربعين ألفًا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأمر بالجهاد[٢٧].

وهذه رواية ظاهرة الضعف فهي لا تنبئ عن المقصود بنصارى العرب، هل هم نصارى الشام؟ أم نصارى شبه جزيرة العرب كنصارى نجران مثلاً؟ ولا تذكر اسم قائد هذا الجيش بل اكتفت بالقول إنه من عظمائهم، وفوق هذا وذاك فإن هذا الخبر قد ورد عند الطبراني بسند ضعيف مما

---

(٢٥) إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، (القاهرة: مكتبة دار التراث، د.ت)، ٣/ ٥٣.

(٢٦) عمران بن حصين: يكنى أبا نجيد، من خزاعة، كان صاحب راية خزاعة يوم الفتح. كان من فضلاء الصحابة وفقهائهم. توفي بالبصرة سنة ٥٢ أو٥٣هـ تقريبًا. انظر أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: خليل مأمون شيحا (بيروت: دار المعرفة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م) ٢/ ١٣٧٠-١٣٧١.

(٢٧) الصالحي، سُبُل الهدى، ٥/ ٤٣٣.

يؤكد عدم صحته[٢٨]. إضافة إلى ذلك فإن مصادر السيرة المعتبرة لم تذكره.

ويعلق الحلبي على هذه الرواية، بأنه لم يكن لها حقيقة. وإنما ذلك شيء قيل لمن يبلغ ذلك للمسلمين ليُرجف بهم[٢٩].

أما ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) فإنه يعزو سبب الغزوة إلى تكليف إلهي لا خيار للنبي ﷺ فيه. قال: لما أنزل الله ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ [التوبة: ٢٩] ندب رسول الله ﷺ أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب على الجهاد وأعلمهم بغزو الروم[٣٠]. ثم يضيف ابن كثير إلى ما سبق موضحًا سبب الغزو: فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم؛ لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله[٣١].

ويضيف ابن كثير إلى الأمر الإلهي بوجوب غزو الروم سبب آخر وهو قوله: "وغزاها ليقتص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه"[٣٢]. وهو في هذه المقولة يشاطر اليعقوبي الرأي في أن خروج النبي ﷺ لغزو الروم كان من أجل

(٢٨) انظر الصالحي، سُبُل الهدى، ٥/ ٤٣٣.

(٢٩) انظر الحلبي، السيرة الحلبية، ٣/ ٩٩.

(٣٠) ابن كثير، البداية والنهاية، ٧/ ١٤٤؛ وانظر الفصول في سيرة الرسول ﷺ لابن كثير، تحقيق: سيد بن عباس الجليمي، الطبعة الأولى (القاهرة: دار الصف، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، ص١٣٧.

(٣١) ابن كثير، البداية والنهاية، ٧/ ١٤٤؛ ابن كثير، الفصول، ص١٣٧.

(٣٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٥٣.

القصاص لجعفر بن أبي طالب وأصحابه، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

والذي يتبين من بعض الروايات أن خروج الرسول ﷺ لمواجهة الروم كان اضطراريًا لا خيار له فيه، حيث إنه استشعر خطر الروم وأنهم مهاجموه لا محالة، إضافة إلى الأمر الإلهي بحربهم كما جاء عند بعض المفسرين، الذين سبقت الإشارة إلى بعض أقوالهم.

لذلك فقد قرر أخذ زمام المبادرة لدرء الخطر عن دولته الناشئة. ونقل المعركة إلى أرض العدو(٣٣).

أما بعض الدراسات الحديثة فهي تقدم آراء مختلفة بعض الشيء عن أسباب توجه النبي تجاه الشام أي غزوة العُسرة.

فقد ذكر بول (Fr. Buhl) أن تبوك اكتسبت شهرتها في التاريخ بسبب الغزوة العظيمة التي قام بها النبي ﷺ لإخضاع عرب الشمال وقد هرب سكان المدينة (تبوك) من الروم وبعض القبائل العربية عند وصوله إليها(٣٤).

في الواقع أنه ليس في مصادر السيرة النبوية أن الغرض من غزوة العُسرة، كان إخضاع عرب الشمال. أما ما أشار إليه بول (Buhl) وهو هروب سكان مدينة تبوك من الروم وبعض القبائل العربية فهو زعم يفتقر إلى السند التاريخي،

---

(٣٣) انظر الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٠.

(٣٤) بول، ف. مقالة عن "تبوك" دائرة المعارف الإسلامية، تعريب أحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبدالحميد يونس (بيروت: دار المعارف، د. ت) ٤/٥٧٥.

ولم تشر المصادر التاريخية إلى شيء من ذلك. ولم تكن تبوك قد أصبحت مدينة آنذاك.

وتحدث كارل بروكلمان (C. Brockelmann) عن أسباب حملة تبوك، أي غزوة العُسرة، فهي في نظره محاولة النبي للثأر لأصحابه من قتلى سرية مؤتة، وكذلك إشغال أصحابه من أهل المدينة الذين حرموا من غنائم غزوة حنين[٣٥]. وهو هنا لم يأت بجديد خاصة في زعمه الثأر لقتلى وقعة مؤتة، حيث سبقه اليعقوبي في هذا الزعم وهذا تفسير مادي للأحداث يصعب إثباته، بل ويجب رفضه لأن الرسول ﷺ والذين اتبعوه في ساعة العسرة لم يكونوا متعلقين بالمال وماديات الحياة.

ومن اللافت هنا أن مونتغمري واط (M. Watt) عندما تحدث عن غزوة العُسرة أو كما يطلق عليها حملة الشمال، تجاهل تمامًا الخطر البيزنطي الذي كان وشيكًا، وعوضًا عن ذلك أشار فقط إلى أهمية استيلاء المسلمين على الطريق المؤدي إلى سوريا (الشام) لما يمثله من أهمية استراتيجية[٣٦]. لا أحد يجادل في أهمية سيطرة المسلمين على طريق (الشام - الحجاز)، لما له من أهمية بالغة، ولكن من المؤكد في الوقت نفسه أن النبي ﷺ لم يجرد ذلك الجيش الجرار في تلك

---

(٣٥) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه فارس ومنير البعلبكي، الطبعة السابعة (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٧م)، ص٦٥.

(٣٦) مونتغمري واط

Muhammad At Medina (Oxford University Press, 1977) p.105; Muhammad Prophet and Statesman (London, Oxford University Press, 1989) pp.218-219.

الظروف البالغة القسوة لمجرد السيطرة على الطريق، لأنه كان بالإمكان تأجيل الغزوة حتى تتوافر الظروف المناسبة، لذلك فلابد أن سبب الغزوة أكبر من السيطرة على طريق. يضاف إلى ذلك أن طريق الشام كانت آنذاك آمنة والتجارة فيه سالكة، ودليل ذلك أن قوافل الأنباط وغيرهم كانت ترد المدينة بصورة شبه منتظمة[٣٧].

ويؤكد أحد الدارسين أن هدف غزوة تبوك (أي العُسرة) كان الثأر لشهداء مؤتة والتعرض للعدو وحلفائه[٣٨]، ومثل هذا الزعم سبق إليه اليعقوبي، كما مرّ سابقًا. وكما سبقت الإشارة فإنه كان بالوسع تأجيل الحملة إن كان الغرض منها هو الثأر لا غير.

وفي سياق أسباب غزوة العُسرة يحصر أحد الباحثين الأسباب بأمرين كل منهما مرتبط بالآخر، الأول هو اجتماع حشود كبيرة على حدود الشام لغزو الحجاز ردًا على حملة مؤتة، والأمر الثاني هو تجرؤ بعض القبائل العربية على حدود دولة المدينة وعلى القوافل أكثر من ذي قبل نتيجة لحملة مؤتة المحزنة[٣٩].

كل هذه الاجتهادات من لدن بعض الدارسين المحدثين، في تفسير أسباب غزوة العُسرة على اختلافها تكاد توحي للقارئ

---

(٣٧) انظر الواقدي، ٣/ ٩٩٠.

(٣٨) محمد ضاهر وتر، فن الحرب الإسلامي في عهد الرسول ﷺ (دمشق: دار الفكر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص٢٤٥.

(٣٩) محمد عزة دروزة، سيرة الرسول ﷺ، الطبعة الثانية (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م) ٢/ ٢٥٩.

أن الغزوة كانت استجابة لروح الثأر أو لدرء الخطر المتوقع من الشمال. ومن الملاحظ أيضًا أن جميع الأسباب المقترحة لم يكن بينها إشارة إلى الموقف القرآني من غزوة العُسرة التي جاء الكثير من أخبارها في سورة التوبة. وفي هذا مجافاة لروح البحث الموضوعي.

هذا مجمل وجيز لبعض الروايات التاريخية وكذلك الدراسات الحديثة التي تناولت شيئًا من أسباب خروج النبي ﷺ في غزوة العُسرة لمواجهة الروم ودفع خطرهم. ولعل أكثر هذه الروايات قبولاً وأكثرها تماسكًا هي رواية الواقدي، لكن في الوقت نفسه لا يمكن قبولها دون تحفظ. إذ إن من الممكن قبول الجزء الأول من الرواية المتضمن: "أن الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام. وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة ... وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها ..." هذا الجزء من الرواية مقبول ومحتمل الوقوع. أما لماذا؟ فربما أن جموع الروم تلك كان لها علاقة مباشرة بأحداث وقعة مؤتة[٤٠] التي حدثت بين المسلمين والروم (٨هـ/ ٦٢٩م)[٤١]. إذ تجرأ المسلمون على مهاجمة الروم في دارهم. لذلك أرادوا في هذه المرة اختبار مدى جهوزية المسلمين واستعدادهم للمواجهة فيما لو

(٤٠) مؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام وقيل من مشارف الشام، وبها كانت تطبع السيوف. وإليها تنسب المشرفية من السيوف. انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٥/ ٢٢٠، ومؤتة: الآن بلدة أردنية تقع جنوب الكرك غير بعيدة منها. انظر البلادي، معجم المعالم الجغرافية، ص٣٠٤.

(٤١) ابن هشام، السيرة، ٤/ ٢٠-٣٠؛ الواقدي، المغازي، ٢/ ٧٥٥-٧٦٩.

دعت الضرورة لذلك. والجزء الذي يمكن التحفظ عليه هو القول: "... ولم يكن ذلك -أي لم يكن للروم جموع ولا نية لحرب المسلمين- إنما ذلك شيٌ قيل لهم فقالوه"(٤٢).

في هذا الجزء نفي لرواية نية الروم لمهاجمة المسلمين وأخذهم الاستعداد والأهبة لذلك. وأن الأمر لا يعدو كونه خدعة من الروم أوصلها الأنباط للمسلمين بالمدينة. والحقيقة أنه لا يمكن رفض رواية الواقدي بحذافيرها، لأنه لابد أن لها أصلا تاريخيًا، ولا يمكن الزعم أن الواقدي قد اختلقها، سيما وأن تلميذه ابن سعد قد قبلها.

والسؤال هنا: ألا يسلك طريق التجارة والسفر بين الشام والحجاز سوى تجار الأنباط؟ ولذلك فقد عرفوا نوايا الروم تجاه المسلمين واستعداداتهم العسكرية؟ أين تجار الحجاز ومسافروهم الذين يسلكون هذا الطريق؟ ألم يشاهدوا ما شاهده الأنباط؟ وهل يعقل أن يستجيب الرسول ﷺ بهذه البساطة، لهذه الخدعة، فيجهز جيشًا كبيرًا في ظروف طبيعية واقتصادية شديدة القسوة تحت ضغط وتأثير مثل هذه الشائعة؟!

أعتقد أن تصديق مثل هذه الشائعة هو نوع من سوء التقدير لمواهب الرسول ﷺ القيادية. لذلك فليس من المستبعد أن التهديد الرومي كان حقيقة، وربما أن الرسول ﷺ قد تلقى أنباء هذا التهديد من أكثر من مصدر، أي ليس عن طريق الأنباط وحدهم، بل لا بد أن مصادر إخبارية أخر

(٤٢) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٠.

جـعلتـه يتـأكـد من خطورة التـهـديد، وإلا مـا الحـاجـة إلى المخاطرة بحياته وحياة جيش قيل إن تعداده يربو على ثلاثين ألفًا؟ وإذا أصبح هذا التفسير مقبولاً فإن رواية البلاذري التي سبقت الإشارة إليها تعد أكثر قبولاً وجاذبية هنا لأنها تتفق وسياق الأحداث قال: "... وسببها [أي الغزوة] أن هرقل ومن اجتمع إليه من لخم وجذام وعاملة وغيرهم أظهروا أنهم يريدون غزو رسول الله ﷺ، فلما سار إليهم هابوا محاربته، فلم يلق كيدًا ..."[٤٣].

ويكاد يجمع المفسرون من الذين تم الرجوع إليهم في هذا البحث على أن سبب غزوة العُسرة يعود إلى شعور المسلمين بالخطر الذي يتهددهم من الشمال، واستجابتهم للأمر الإلهي بوجوب قتال الروم، فكان قرار مواجهته يعود إلى أمر إلهي لا خيار للمسلمين فيه، جاء عند ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) في تحقيق سبب الغزوة، أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ [التوبة: ٢٩] أنها نزلت حين أمرَ محمد ﷺ وأصحابه بغزوة تبوك، ثم يستطرد قائلاً: وذُكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ في الأمر بحرب الروم، فغزا رسول الله ﷺ بعد نزولها غزوة تبوك[٤٤].

(٤٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ١/ ٣٦٨.

(٤٤) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الطبعة الأولى (القاهرة: مركز هجر للطباعة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م) ١١/ ٤٠٧.

أما النيسابوري (ت ٤٦٨هـ) فيعلق على سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا﴾ [التوبة: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ [التوبة: ٤١]؛ أنها نزلت في الحث على غزوة تبوك، وذلك أن رسول الله ﷺ لما رجع من الطائف وغزوة حنين أُمِرَ بالجهاد لغزو الروم[٤٥].

وكذلك فإن الزمخشري (ت ٥٨٣هـ) يقول عن آية النفير، وذلك في قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ [التوبة: ٤١]: كان ذلك في غزوة تبوك في سنة عشر [هكذا] بعد رجوعهم من الطائف استنفروا في وقت عُسرة وقحط وقيظ[٤٦].

وجاء عند القرطبي (ت ٦٧١هـ) في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٨]: لا خلاف أن هذه الآية نزلت عتابًا على من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك[٤٧].

وعندما تطرق ابن كثير لتفسير قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩]، قال: ... أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين، اليهود والنصارى، وكان ذلك

(٤٥) علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، عناية وليد الذكري (صيدا وبيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م)، ص١٣٠.

(٤٦) محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، تحقيق: محمد عبدالسلام شاهين، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م) ٢/ ٢٣٦.

(٤٧) محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الطبعة الأولى (بيروت: دار الفكر، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م) ٤/ ٢٣٢٥.

في سنة تسع من الهجرة، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم ... وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها[٤٨].

وكذلك فإن السيوطي (ت ٩١١هـ)، قال عن مناسبة قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩]: إنها نزلت حين أمر محمد ﷺ وأصحابه بغزوة تبوك[٤٩].

هذه بعض أقوال بعض المفسرين لبعض الآيات الواردة في سورة التوبة وذات الصلة المباشرة بغزوة العُسرة. ويلاحظ أن المفسرين الذين أشير إليهم لهم هنا يجمعون على أن الآيات: (٢٩، ٣٨، ٤١، ١١٧)، الواردة في سورة التوبة كلها تتحدث عن غزوة العُسرة، أو كما يسميها بعضهم غزوة تبوك، ويؤكدون - وهم على حق - أن السبب الرئيس للغزوة هو الاستجابة للأمر الإلهي بقتال الروم. ويلاحظ كذلك أن هؤلاء المفسرين عندما يتحدثون عن الغزوة لا يذكرون شيئًا من أسبابها، فهي في نظرهم أمر إلهي بحرب الروم، ويغفلون ما يذكره المؤرخون من أسباب سبقت الإشارة إليها، وكان المنتظر منهم بيان قيمة ما تداول بعض المؤرخين من بواعث الغزوة.

وعلى العموم يمكن القول إن خطر الروم كان وشيكًا وكان محدقًا بالمسلمين، وربما كان من أسبابه الصدام الدامي في

(٤٨) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٤٧.

(٤٩) عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، الدُر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي (القاهرة: مركز هجر للبحوث والدراسات، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) ٧/ ٣١١ - ٣١٢.

مؤتة سنة (٨هـ/ ٦٢٩م) فأراد الروم اختبار قوة المسلمين واستعدادهم، وما جاء في سورة التوبة من آيات تستنهض المسلمين وتحثهم على القتال وتقرع المتخاذلين والمثبطين من المنافقين ومن على شاكلتهم هو دليل على خطر وشيك. وهو في الوقت نفسه أصدق دليل على خطورة الوضع على الحدود الشمالية للدولة الإسلامية في المدينة. لذلك فإن المفسرين على قدر كبير من الصواب حين يربطون بين ما جاء في سورة التوبة من أوامر إلهية بالنفير والقتال وبين غزوة العُسرة، وكان الأجدر بهم عدم إهمال الأسباب الموضوعية الأخرى التي أشار إليها بعض المؤرخين.

٤ - الاستنفار والحشد:

انتشرت في المدينة الأخبار عن استعداد الروم لغزو المسلمين، عن طريق التجار الأنباط[٥٠]، وربما عن طريق غيرهم كذلك من التجار والمسافرين المسلمين.

وبناء على ما وصل إلى النبي ﷺ من أخبار عن الخطر الوشيك؛ استنفر القبائل من حوله، استعدادًا للمواجهة. فبعث إلى أسلم بُريدة بن الحُصَيّب وأمره أن يبلغ الفرع[٥١]. وبعث أبا رُهْم الغفاري إلى قومه ببلادهم، وخرج أبو واقد الليثي إلى قومه، وخرج أبو الجعد الضمري إلى قومه

(٥٠) انظر، الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٨٩ - ٩٩٠؛ ابن سعد، الطبقات، ٢/ ١٦٥.

(٥١) الفُرُع: وادٍ فحل (كبير) من أودية الحجاز يمر على بُعد (١٥٠) كيلاً جنوب المدينةً المنورة كثير العيون والنخل. البلادي، معجم المعالم الجغرافية، ص٢٣٦.

بالساحل. كما بعث نُعيم بن مسعود في أشجع. وبعث في بني كعب بن عمرو (من خزاعة) بديل بن ورقاء وعمرو بن سالم وبشر بن سفيان. وبعث في سُليم عِدة منهم العباس بن مرداس(٥٢). وحين اكتمل الحشد، أخبر النبي ﷺ أصحابه أنه يريد غزو الروم. وكان قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غيرها إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس لبعد الشُقة(٥٣).

وكان وقت الغزوة غير موائم، فقد روى موسى بن عقبة أن الأمر بالخروج، كان في حر شديد، وليالي الخريف، والناس خارفون في نخيلهم(٥٤). وجاء عن ابن إسحاق قوله: ".. وذلك في زمان من عُسرة الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه"(٥٥).

في هذا الجو الذي يتصف بالشدة، لم تكن الاستجابة لتلبية نداء الجهاد سريعة من لدن بعضهم. فأبطأ عنه ناس كثير، وقالوا: "الروم ولا طاقة لنا بهم فتخلف المنافقون..."(٥٦). ولهذا جاء الخطاب الإلهي معنفا لهم بقوله: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨].

(٥٢) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٠.
(٥٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٦٩.
(٥٤) موسى بن عقبة، المغازي، ص٢٩٤.
(٥٥) انظر، ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٦٩.
(٥٦) موسى بن عقبة، المغازي، ص٢٩٤.

٥ - النفقة لتجهيز الغزوة:

بسبب صعوبة الأحوال المعاشية لكثير من الناس في تلك السنة، ولخطورة الوضع الأمني الذي أصبح يهدد المسلمين على حدودهم الشمالية؛ فقد حض النبي ﷺ أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، ومن هؤلاء: عبدالرحمن بن عوف تصدق بأربعة آلاف درهم، وتصدق عاصم بن عدي بمئة وسق من تمر[٥٧].

وجاء في رواية أخرى أن أول من أسهم في تجهيز الغزوة أبو بكر الصديق، فقد جاء بماله كله، أربعة آلاف درهم، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله[٥٨].

وبذل بعض كبار الصحابة أموالاً في سبيل تجهيز الغزوة ولكن لم تحدد مقاديرها مثل العباس بن عبدالمطلب وطلحة بن عبيدالله وسعد بن عُبادة ومحمد بن مسلمة[٥٩].

وجاء في إحدى الروايات أن العباس بن عبدالمطلب أنفق في تجهيز الغزوة مالاً يقال إنه تسعون ألفًا[٦٠]. ولم يتبين من

(٥٧) ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ٢٠٥؛ وقارن الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩١، والوسق: ستون صاعًا. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة "وسق" ١٠/ ٣٧٨، وقارن الروايات الأخرى حول نفقة عبدالرحمن بن عوف عند السندي، الذهب المسبوك...، ص ١٩٣، ٢١٣-٢٢٠.

(٥٨) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩١.

(٥٩) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩١.

(٦٠) أحمد بن علي المقريزي، إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق: محمود محمد شاكر (دون معلومات نشر) ١/ ٤٤٦ - ٤٤٧.

الرواية فيما إذا كانت النفقة - دنانير أو دراهم. وقد رغب أهل الغنى في البذل واحتسبوا في ذلك وجهزوا بعض الضعفاء، فكان الرجل يأتي بالبعير إلى الرجل والرجلين، فيقول: هذا البعير بينكما تتعاقبانه، ويأتي الرجل بالنفقة فيعطيها بعض من يخرج(٦١).

ولقى يامين بن عُمير النضري(٦٢) أبا ليلى المازني وعبدالله بن مغفل المزني، وهما يبكيان. فقال: ما يبكيكما؟ قالا: جئنا رسول الله ﷺ يحملنا فلم نجد عنده، فأعطاهما ناضحًا له [جملاً أو ناقة] وزود كل واحد منهما صاعين من تمر(٦٣).

وبلغ الحماس لدى بعض المسلمين والرغبة في المساعدة في البذل من أجل الغزوة والمشاركة فيها أن أحد الصحابة ويدعى أبا عقيل الأنصاري(٦٤). جاء إلى الرسول ﷺ وقال: "يا رسول الله! بتُ ليَلتي أَجُرُّ بالجرَير أَحْبُلاً حتى نلَتُ صاعين من تمر، فأمسكت أحدهما لأهلَي وأتيتك بالآخر(٦٥)!

(٦١) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩١.

(٦٢) يامين بن عمير النضري، من الصحابة، أسلم يوم بني النضير فأحرز ماله. انظر ابن حجر العسقلاني، الإصابة ...، ٣/ ٢٠٩٩ (الترجمة: ٩٤١٤).

(٦٣) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٤؛ وقارن ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٧٢.

(٦٤) أبوعقيل الأنصاري: أحد بني أُنيف الإراشي، حليف بني عمرو بن عوف. انظر، علي بن محمد بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: خليل مأمون شيحا، الطبعة الأولى (بيروت: دار المعرفة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م) ٥/ ٤٧ (الترجمة: ٦١١٤)

(٦٥) النيسابوري، أسباب النزول، ص١٣٥. وفي الحديث: أن رجلاً كان يجر بالجرير. يريد أنه كان يسقي الماء بالحبل. والجرير: الحبل. ابن منظور، لسان العرب، مادة "جرر"، ٤/ ١٢٧.

فـقـبله منه رسـول الله ﷺ وقـال له: "اِجْـعَلْه في تمر الصدقة"[٦٦].

بل إن بعض أصحاب رسول الله ﷺ لا يجد شيئًا البتة ليسهم به في تجهيز الغزوة وهو مع ذلك يتوق إلى فعل أي شيء من أجل الجهاد في سبيل الله، فلم يكن أمامه سوى الصدقة بعِرضِه، فقد جاء عُلبة بن زيد[٦٧] إلى رسول الله ﷺ، فقالَ: يا رسول الله ما عندي ما أتصدق به، وجعلتُ عرضي حِلاً: فقال رسول الله ﷺ: "قد قبل الله صدقتك"[٦٨].

وفي رواية أخرى أن عُلبة قال: "اللهم إنك أمرتنا بالجهاد ورغبت فيه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في مال أو جَسَد أو عِرض" ... فقال رسول الله ﷺ: "أبشِر، فوالذي نفسي بيده، لقد كُتِبَتْ في الزكاة المتقبلة"[٦٩].

ولم تقتصر استجابة المؤمنين لنداء الله والرسول ﷺ على الرجال، بل شملت النساء اللاتي نافسن الرجال في البذل

(٦٦) ابن الأثير، أسد الغابة، ٥/ ٤٧.

(٦٧) عُلبة بن زيد: بن صيفي الأنصاري الأوسي الحارثي، وهو أحد البكائين الذين "تولوا وأعينهم تفيض من الدمع". ابن الأثير، أسد الغابة، ٣/ ٢٧٦، (الترجمة: ٣٧٦١).

(٦٨) الواقدي، المغازي، ٣/٩٩٤؛ وقارن ابن الأثير، أسد الغابة ....، ٣/ ٢٧٦، (الترجمة: ٣٧٦١).

(٦٩) الصالحي، سُبل الهدى ....، ٥/ ٤٣٩؛ وقارن محمد بن أبي بكر الزرعي ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدى خير العباد، تحقيق: عبدالقادر عرفان العشا، الطبعة الأولى (بيروت: دار الفكر، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م) ٣/ ٤٥١.

السـخي من أجل تجهيـز جيش غزوة العُسـرة. وهذه المشاركة المادية من قبل النسـاء وربما أنهـا تُعـدُّ المرة الأولى في تاريخ غـزوات النبي ﷺ. قـالت أم سنان الأسلميـة[٧٠]: "لقـد رأيت ثوبًا مبسـوطًا بين يدي رسول الله ﷺ في بيت عـائشـة رضي الله عنها فيـه مسك ومعـاضـد وخـلاخل وأقـرطة وخـواتيم وخـدمـات[٧١]. مما يبـعث به النسـاء يُعِنّ به المسلمين في جهازهم"[٧٢].

أظهرت الروايات السابقة جهد الموسرين وجهد المقلين في سبيل تجهيـز جيش غزوة العُسـرة، وهي روايات تصـور بلا شك مـدى اسـتـعـداد المسلمين في ذلك الوقت لتلبـيـة داعي الجهاد والنفقة في سبيله مهما كانت متواضعة.

أمـا أعظم الناس نفقـة في تلك الغـزوة، فكان عـثمـان بن عـفـان (ت ٣٥هـ) فـقـد جـاء عن ابن إسـحـاق قـولـه: "وأنفق عـثـمـان بن عـفـان في ذلك نـفـقـة عظيـمـة، لم ينفق أحـدٌ مثلها"[٧٣]. وعقّب ابن هـشـام على هذه الرواية، قائلاً: حدثني من أثق به: "أن عـثمـان بن عفـان أنفق في جيش العُسـرة في

(٧٠) أم سنان الأسلميـة: أسلمت وبايعت بعد الهجرة، وشهدت مع النبي ﷺ فـتح خـيـبـر. انظر ابن سـعـد، الطبـقـات، ٨/ ٢٩٢؛ ابن حـجـر العسقلاني، الإصابة، ٤/ ٢٧٠٧.

(٧١) للاطلاع على حُلي النسـاء وأنواعـهـا في عـصـر الرسـول ﷺ انظر محمد بن فارس الجميل، "حليـة النساء في عصر الرسول ﷺ: دراسة مسـتـمـدة من مـصـادر الحديث النبوي الشـريف"، مـجلة كليـة الآداب، جامعة الملك سعود، مج٧ (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)، ص٧٥ - ١٠٠.

(٧٢) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٢.

(٧٣) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٧١.

غـزوة تبـوك، ألف دينار"؛ فـقـال رسـول الله ﷺ: "اللهم ارض عن عـثـمـان فإنـي عنه راض"[٧٤]. من المعلوم أن ابن إسـحـاق ومن بعـده ابن هشـام، يعـدان من أقـدم المصـادر التي تناولت أحداث السيـرة؛ إلا أنه من الملاحظ أن ابن إسـحـاق لا يعطي صورة واضحة لنفقة عثمان، بل لا يحدد مبلغًا بعينه. أما ابن هشـام، فيـذكـر أن نفقـة عـثـمـان كـانت ألف دينار، ولم يـذكـر مصدر روايته، بل اكتفى بالقول: "حدثني من أثق به".

ويضيف ابن أبي شـيبـة (ت ٢٣٥هـ) أن عـثـمـان أتـى رسـول الله ﷺ بدنانير فـي غزوة تبوك، فـجعل رسول الله ﷺ يقلبـها في حـجـره، ويقـول: "مـا على عـثـمـان بن عـفـان مـا عـمـل بعـد هـذا"[٧٥].

في ظل هذا الـتـعـارض فـي تقـدير نـفـقـة عـثـمـان فـي غـزوة العُسـرة تطالعنا رواية عند الـواقدي دون سـند، جاء فـيـهـا: أن عـثـمـان جـهـز ثلث ذلك الجـيش، فكـان من أكـثـرهم نـفـقـة... فيـقـال: إن رسول الله ﷺ قال يومئذٍ: ما يضـر عثمان مـا فعل بعد هـذا!"[٧٦].

وكـان تعـداد الجيش حسب رواية الواقـدي ثلاثين ألفًـا، أي أن عثمان بن عفان تكفل بتجهيز عشرة آلاف رجل[٧٧].

---

(٧٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٧١.

(٧٥) عبدالله بن محمد بن أبي شيبة، كتاب المغازي، تحقيق: عبدالعزيز إبراهيم العُمـري، الطبـعـة الثـانيـة (الرياض: دار إشـبـيليـا، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ص٤٠٢.

(٧٦) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩١.

(٧٧) انظر الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٦؛ وقارن ابن سعد، الطبقات، ٢/ ١٦٦.

وليس من المستبعد أن خبر الواقدي لا يخلو من مبالغة، سيما وأن تلميذه ابن سعد الذي تحدث عن الغزوة وذكر ظروف العوز والفاقة والجدب التي عاناها المسلمون آنذاك إضافة إلى قسوة الظروف الجوية، إلا أنه لم يذكر شيئًا عن نفقة عثمان لا من قريب ولا من بعيد![٧٨].

أما الترمذي (ت ٢٩٧هـ) فيذكر بسنده أن عثمان بن عفان، قال: "يا رسول الله! عليّ ثلاثمئة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله". فقال رسول الله ﷺ": ما على عثمان ما عمل، ما على عثمان ما عمل بعد هذه". ثم علق الترمذي على هذا الخبر بقوله: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث السكن بن المغيرة[٧٩].

ثم يأتي الترمذي برواية أُخرى بعد روايته الأولى مباشرة، فيقول عن مقدار نفقة عثمان في تجهيز جيش العُسرة، قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار ... في كمه حين جهز جيش العُسرة، فينثرها في حجره ... ثم قال رسول الله ﷺ: "ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم مرتين"[٨٠].

(٧٨) انظر ابن سعد، الطبقات، ٢/ ١٦٥ - ١٦٨.

(٧٩) محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، الجامع الصحيح، تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض، الطبعة الثانية (القاهرة: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م) ٥/ ٦٢٥ - ٦٢٦، (ح: ٣٧٠٠). الحِلسُ: كل ما وقى ظهر الدابة تحت الرحل والقتب والسرج. انظر إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط (إستانبول: المكتبة الإسلامية، د. ت، ص١٩٢).

(٨٠) الترمذي، الجامع الصحيح، ٥/ ٦٢٦ ، (ح: ٣٧٠١)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٧/ ١٤٨ - ١٤٩.

ويختم الترمذي بقوله: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. والملاحظ هنا أن الترمذي يحكم على الرواية الأولى بالغرابة، كأنه يشكك في دقتها ربما من حيث السند، بينما يُحسِّن الرواية الثانية التي ذكرت أن نفقة عثمان كانت ألف دينار.

وجاء في رواية عن عمران بن حُصين، أن عثمان بن عفان كان قد جهز عيرًا إلى الشام، فقال: يا رسول الله! هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية ... ثم قال رسول الله ﷺ: "لا يضر عثمان ما فعل بعدها"[٨١].

وفي رواية لدى ابن حزم (ت ٤٥٩هـ) دون سند ذكر فيها أن عثمان بن عفان حمل في غزوة العُسرة على تسعمائة بعير ومائة فرس، وجهز ركابها حتى لم يفقدوا عقالاً ولا شِكَالاً، وروى أيضًا أنه أنفق فيها ألف دينار[٨٢].

وجاء في رواية أُخرى أن عثمان حمل في جيش العُسرة على ألف بعير وسبعين فرسًا[٨٣].

---

(٨١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ٨/ ١٣٩ - ١٤٠؛ وقارن أحمد بن محمد القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، تحقيق: مأمون بن محي الدين الجنان، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م) ١/ ٣٤٦ - ٣٤٧.

(٨٢) علي بن أحمد بن حزم، جوامع السيرة، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ص١٩٩؛ يوسف بن عبدالله بن عبدالبر، الدُرر في اختصار المغازي والسِّير، تحقيق: مصطفى ديب البغا، الطبعة الثانية (دمشق وبيروت: مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ص٢٨٧. وشِكال الدابة: ما تُشَدُّ به قوائمها. أي القيد. انظر المعجم الوسيط، ص٤٩١.

(٨٣) القسطلاني، المواهب اللدنية، ١/ ٣٤٧.

وينقل القسطلاني بسنده عن الطبري في الرياض النضرة، من حديث حذيفة، قال: بعث عثمان - يعني في جيش العُسرة - بعشرة آلاف دينار إلى رسول الله ﷺ...[٨٤].

وهكذا فإن التعارض والتناقض في روايات نفقة عثمان بن عفان على جيش العُسرة، ما بين مقل ومكثر، ومن الواضح أن بعض الروايات يغلب عليها المبالغة في تقدير تلك النفقة، ولذلك فإنه يصعب الجزم بأي منها. ولكنها في الوقت نفسه، قد أجمعت على أن عثمان كان من أكثر الناس نفقة في تجهيز جيش العُسرة، وهذا مما لا جدال فيه. أما ما قيل من روايات عن تقديم عثمان لمعونات أُخرى للجيش كالإبل وعدتها، فهي روايات ضعيفة[٨٥].

وفي غمرة حماس المسلمين للجهاد في سبيل الله بالمال والنفس كان بعض المسلمين في المدينة، ممن تتحرق نفوسهم للجهاد إلا أنهم لا يجدون ما ينفقون، ثم إنَّ منهم من أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاءون، وطلبوا منه أن يحملهم، أي أن يوفر لهم وسيلة النقل، وكانوا أهل حاجة، فقال لهم رسول الله ﷺ: "لا أجد ما أحملكم عليه". فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون. وكانوا سبعة نفر من الأنصار[٨٦].

(٨٤) القسطلاني، المواهب اللدنية، ١/ ٣٤٧.

(٨٥) انظر أكرم العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٥٢٥ ؛ وحول نفقة عثمان بن عفان والروايات المختلفة في ذلك، راجع تعليقات السندي في حواشي الذهب المسبوك، ص ١٩٩-٢١٢.

(٨٦) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٧١ - ١٧٢؛ الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٣ -٩٩٤.

وتعاطفًا من بعض الموسرين من المسلمين فإنهم وقفوا إلى جانب إخوتهم البكاءين، وقدروا لهم صدق نواياهم وحرصهم على الجهاد، فيقال إن يامين بن عُمير النضري، أعطى اثنين منهم بعيرًا وزودهما بشيء من تمر، وأن العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله ﷺ حمل منهم رجلين، وأن عثمان بن عفان حمل منهم ثلاثة(٨٧).

وهكذا فلو كان عثمان بن عفان قد جهز جيش العُسرة بمائتي بعير أو ثلاث مئة أو تسع مئة بعير كما قيل لما ضاق بحمل سبعة من فقراء المسلمين، الذين لا يجدون ما ينفقون!

في وقت قصير نسبيًا أكمل الرسول ﷺ الاستعداد للغزو واجتمعت لديه القبائل المحيطة بالمدينة وما وراءها.

٦ - ثنية الوداع:

اتخذ رسول الله ﷺ من ثنية الوداع(٨٨) مكانًا لتجمع المسلمين استعدادًا للانطلاق. واختلفت المصادر في تقدير عدة الجيش ما بين ثلاثين ألفًا وسبعين ألفًا(٨٩). ومما يلفت

(٨٧) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٤؛ وقارن ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٧٢؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ١٠٢.

(٨٨) ثنية الوداع: ورد في تسميتها أقوال عدة لعل أكثرها صوابًا ما جاء عند ياقوت في قوله: "وقيل لأن النبي ﷺ ودع بها بعض من خلفه بالمدينة في آخر خرجاته (غزواته)، وقيل في بعض سراياه المبعوثة عنه... والصحيح أنه اسم قديم جاهلي، سُمي لتوديع المسافرين. انظر ياقوت، معجم البلدان، ٢/ ٨٦.

(٨٩) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٦، ١٠٠٢؛ ابن سعد، الطبقات، ٢/ ١٦٦؛ الصالحي، سبل الهدى، ٥/ ٤٣٥؛ الحلبي، إنسان العيون...، ٣/ ١٠٢. وانظر الروايات المختلفة حول عدة جيش العُسرة لدى أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٥٣١.

النظر بخصوص هذه التقديرات، أن بعض المصادر المتقدمة مثل موسى بن عقبة، لم تذكر عنها شيئًا. أما ابن إسحاق فنقل رواية عن كعب بن مالك أن من خرج مع رسول الله ﷺ لا يجمعهم كتاب حافظ، أي ديوان(٩٠).

جاء عند البخاري في حديث كعب بن مالك(٩١) في قصة تخلفه عن الغزوة وتوبته قوله: "والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ"(٩٢). وجاء في إحدى روايات الواقدي عن عدد الناس في غزوة العُسرة: أنهم كثير ولا يجمعهم كتاب(٩٣).

والواقدي في هذه الرواية لا يذكر مصدر خبره، ولا يحدد عددًا بعينه. ولكنه في رواية أخرى ينقل عن زيد بن ثابت(٩٤)، أنه سُئل: كم كان المسلمون في غزوة تبوك؟ فقال: ثلاثون ألفًا(٩٥).

(٩٠) انظر، موسى بن عقبة، المغازي، ص٢٩٦؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٨٦.

(٩١) كعب بن مالك بن أبي كعب الأنصاري الخزرجي، كان من شعراء الرسول ﷺ المعدودين، شهد بيعة العقبة وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ما عدا بدرًا وتبوك. انظر ابن الأثير، أُسد الغابة، ٣/ ٥٣٧ - ٥٣٨ (الترجمة: ٤٤٨٥).

(٩٢) البخاري، صحيح البخاري، ص٩١٠ (ح: ٤٤١٨).

(٩٣) انظر الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٢.

(٩٤) زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي، كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ وكان من أعلم الصحابة بالفرائض، لقوله ﷺ: "أفرضكم زيد"، توفي بعد سنة أربعين للهجرة. انظر ابن الأثير، أسد الغابة، ٢/ ٢٣٥ - ٢٣٦ (الترجمة: ١٨٢٤).

(٩٥) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٦.

ويذكر الواقدي في موضع آخر من مغازيه عن عدد المسلمين في الغزوة: قالوا: "وكان الناس مع رسول الله ﷺ ثلاثين ألفاً"(٩٦).

يلاحظ هنا عدم التماسك في روايات الواقدي التي ينقلها عن رواته بخصوص عدد المسلمين في الغزوة؛ فيقول مرة: لا يجمعهم كتاب، أي يصعب إحصاؤهم، ومرة ينقل عن زيد بن ثابت أنهم ثلاثون ألفاً، ورواية زيد عن عدد المسلمين من الصعب القبول بها دون تحوط، إذ إن زيداً لم يذكر الكيفية التي تم من خلالها معرفة وضبط عدد المسلمين في تلك الغزوة.

أما رواية الواقدي الأخيرة التي قال فيها بصيغة الشك "قالوا" فهو لم يذكر مصدراً يمكن الاعتداد به والاطمئنان إلى صحته. لذلك وحيث إن الواقدي هو المصدر الوحيد فيما يبدو الذي ذكر عدد المسلمين في غزوة العُسرة، وحيث إن رواياته التي ساقها تفتقر للدقة، فليس من الصواب التسليم بها.

أما ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) فيذكر في رواية عن معاذ بن جبل أن الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك (العُسرة) كانوا زيادة على ثلاثين ألفاً. وفي السياق نفسه ينقل رواية عن أبي زرعة الأزدي أنهم كانوا أربعين ألفاً(٩٧).

(٩٦) الواقدي، المغازي، ٣/ ١٠٠٢.

(٩٧) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ٨/ ١٤٧.

ويظهـر اضطراب الـروايات حـول عـدد المسلمين في تلك الغـزوة عند الصـالحـي (ت ٩٤٢هـ) فـهـو يذكر رواية مـعـاذ بن جبل بأن المسلمين كانوا زيادة عن الثلاثين ألفًا. ثم ينقل عن العسقـلانـي عن الحـاكم في الإكليل عن أبي زرعـة قـال: كـانوا بتبـوك سـبـعين ألفـًا، وجمع بين الكلامين [القـولين] بأن من قـال: ثلاثين ألفـًا لم يعُـدَّ التـابع، ومـن قـال سـبـعين ألفـًا عـدّ التـابع والمتبـوع[٩٨]. والتكلف فـي هذا التـفسـيـر لا يـحتـاج إلـى دليل. لذلك فمن الواجب استـبعـاد هذه الرواية وعدم قبولها بحال.

إن أحـد الإشكالات هنا هـي رواية أبي زرعـة عند ابن حجـر التي تقـرر أن عـدد المسلمين في الغـزوة كـان أربعين ألفـًا. ثم نجد رواية أبي زرعة فـي الإكليل تقرر أن عددهم سبعين ألفًا!

والإشكـال الآخـر المتـعلق فـي هـذه الـروايات أنهـا لم تذكـر الكيفية التي ضبطت بها هذه الأعداد الكبيرة من المشـاركين فـي الغزوة.

ولعل مـا يزيد الأمـر التباسًـا حول عدد المسلمين الحقيقي من الذين شـاركوا في غزوة العُسـرة، هو ما جـاء عن كعب بن مـالك نفسـه فـي حـديثه عن الغـزوة، إذ قـال: "وغـزا رسـول الله ﷺ بنـاس كـثيـر يزيدون علـى عـشـرة آلاف، ولا يـجـمـعـهم ديوان حـافظ"[٩٩].

(٩٨) الصـالحـي، سبل الهدى، ٥/ ٤٤٢.

(٩٩) انظر مسلم، صحيح مسلم، ٤/ ٢١٢٩ (ح: ٥٥).

ولهذا فيمكن القول إن عدد المسلمين في غزوة العُسرة لا يخلو من مبالغة، ولعل مرد الشك في هذه الأعداد أن المسلمين الذين شاركوا في فتح مكة (٨هـ/ ٦٢٩م) كانوا عشرة آلاف[١٠٠]. وكانوا في غزوة حنين من السنة نفسها اثني عشر ألفًا بعد أن انضاف لهم ألفان من أهل مكة[١٠١].

في ضوء ذلك فإنه ليس من السهل جمع ثلاثين ألفًا في أقل من سنة والمسير بهم نحو الروم. لذلك فمن المحتمل أن جيش العُسرة كان أقل بكثير مما تشير إليه الروايات السابقة، ربما كان في حدود خمسة عشر ألفًا، سيما وأن الناس كانوا في ضيق وجهد وعُسرة من النفقة والزاد حتى أن بعض المسلمين في تلك الغزوة كما قيل، كانوا يمصون النوى ويشربون عليه الماء[١٠٢]. والوقت كان يتسم بالجدب والجفاف والحر الشديد، كما تذكر الروايات التي سبقت الإشارة إليها.

أما بخصوص الإبل والخيل في تلك الغزوة، فقد قيل كان معهم من الإبل اثنا عشر ألف بعير، ويقال أيضًا خمسة عشر ألف بعير. ومن الخيل عشرة آلاف فرس[١٠٣].

---

(١٠٠) الواقدي، المغازي، ٢/ ٨٠١؛ وانظر العمري، السيرة النبوية، ٢/٥٣١.

(١٠١) الواقدي، المغازي، ٣/ ٨٨٩.

(١٠٢) البيهقي، دلائل النبوة، ٥/ ٢٢٩.

(١٠٣) انظر الواقدي، المغازي، ٣/ ١٠٤١؛ ابن سعد، الطبقات، ٢/١٦٦؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١/٣٦٨؛ المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٢٥١.

٧ - مواقف المنافقين من الغزوة:

كان المنافقون في المدينة أيام الرسول ﷺ كثيرًا ما يثيرون الشغب والاضطراب في المجتمع، ويتآمرون مع أعداء المسلمين من يهود وغيرهم. ولذلك فقد كانوا شوكة في خاصرة المسلمين، ولم يكن الرسول ﷺ ليستحل دماءهم ما داموا ينطقون بالشهادتين، ويظهرون الإسلام.

ولما انتشر خبر التهديد الرومي للدولة الإسلامية، نشط المنافقون في تخذيل المسلمين والتثبيط من عزائمهم. فقد بلغ رسول الله ﷺ أن ناسًا من المنافقين مجتمعون في بيت سويلم اليهودي، يثبطون الناس عن المسير مع رسول الله ﷺ في غزوة العُسرة، فبعث إليهم رسول الله ﷺ طلحة بن عبيدالله مع بعض أصحابه وأمرهم بتحريق بيت سويلم(١٠٤).

وكان بعض المنافقين يسعون بين المسلمين محاولين ثنيهم عن الجهاد وترهيبهم من العدو قائلين: "أتحسبون قتال بني الأصفر [الروم] كقتال غيرهم، والله لكأنا بكم غدًا مقرنين في الحبال(١٠٥).

وجعل الجد بن قيس(١٠٦)، يثبط قومه من بني سلمة، قائلاً: "لا تنفروا في الحر"(١٠٧). وذات يوم ورسول الله ﷺ

(١٠٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٧٠ - ١٧١.

(١٠٥) الواقدي، المغازي، ٣/ ١٠٠٣؛ وقارن ابن هشام، ١٧٩/٤.

(١٠٦) الجد بن قيس بن صخر الأنصاري السُلمي، يكنى أبا عبدالله، وكان ممن يُظَنُّ فيه النفاق، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي**﴾ [**التوبة**: ٤٩] وذلك في غزوة تبوك، توفي في خلافة عثمان بن عفان. ابن الأثير، أسد الغابة، ٣١٤/١، (الترجمة: ٧٠٩).

(١٠٧) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٣.

آخذ في جهازه، قال للجد بن قيس: "يا جد! هل لكِ العام في جِلاد بني الأصفر؟" فقال: يا رسول الله، أَوَتَأْذَن لي ولا تَفْتِنِّي... وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: "قد أذنت لك"(١٠٨). وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

ولما عاتبه ابنه عبدالله على تقاعسه عن الخروج في الغزوة، قال: "يا بني ما لي وللخروج في الريح والحر والعُسرة إلى بني الأصفر؟ والله ما آمن خوفًا من بني الأصفر وإني في منزلي ...، فأذهب إليهم فأغزوهم، إني والله يا بني عالم بالدوائر..."(١٠٩).

ومن زعماء المنافقين من الخزرج عبدالله بن أُبيٍّ ابن سلول (ت ٩هـ)(١١٠)، الذي خرج مع رسول الله ﷺ وضرب عسكره أسفل منه نحو ذباب(١١١)، أسفل من ثنية الوداع، قال ابن إسحاق: وكان عسكر ابن أُبيٍّ فيما يزعمون ليس بأقل

(١٠٨) ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٧٠.

(١٠٩) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٣.

(١١٠) ابن أُبي: هو عبدالله بن أُبي ابن سلول، منسوب لجدته، وهو من الخزرج من الأنصار، وكان زعيم المنافقين بالمدينة، توفي سنة ٩هـ، انظر علي بن أحمد بن حزم، جمهرة أنساب العرب (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ)، ص٣٥٤-٣٥٥.

(١١١) ذُباب: أكمة صغيرة في المدينة، يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع، فإذا خرجت من المدينة فسلكت ثنية الوداع، كان ذباب على يمينك وسلع على يسارك، وقد كُسي اليوم بالعمران، البلادي، معجم المعالم الجغرافية؛ وانظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ١٠٣.

العسكرين[١١٢]. وكان معه حلفاؤه من اليهود والمنافقين ممن اجـتـمع إليـه، فكان يقـال: ليس عـسكر ابن أُبَيّ بأقل العـسكرين[١١٣]. أما عـدد عـسكـر ابن أُبَيّ، وأنه ليس بـأقل العـسكرين، فـإن أول من أورد هذا الخـبـر ابن إسـحـاق، دون سند وعلق عليه قائلاً: "فيما يزعمون". وهو هنا يلقي بظلال من الشك حول صحة الخبر؛ لأنه إذا كان جيش المسلمين ثلاثين ألفًا فـيـمـا يزعـمـون، يكون أصـحـاب ابن أُبِّي من المنافقين واليهود يماثلون المسلمين عددًا! لو كان الأمر كذلك لكانٍ وضع المسلمين بالمدينة غير ما هو عليه، نظرًا لما يمثله ابن أبَيّ وأنصاره من ثقل، خـاصة أن القبـائل اليـهـودية قـد أُخـرجت من المدينة، إضـافـة إلى تناقص المنافـقين مع مـرور الوقت وازدياد عدد المسلمين بعد فتح مكة. لـذلك فـلا يجـوز الأخذ بهذا الزعم.

وكان ابن حزم محقًا، عندما علق على خبر عِدة عسكر ابن أُبيٍّ بأنه فـيـمـا يزعـمون ليس بأقل العـسكرين بقـوله: "وهذا باطل لأنه لم يتـخلف مـعـه إلا مـا بين السـبـعين والـثـمـانين فقط"[١١٤].

ويضيف ابن عبدالبر أن من تخلف مع عبدالله بن أُبيٍّ ابن سلول، من المنافقين وأهل الريب، كانوا نيفًا وثمانين رجلاً[١١٥].

(١١٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٧٣.

(١١٣) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٥؛ ابن سعد، الطبقات، ٢/ ١٦٥.

(١١٤) ابن حزم، جوامع السيرة، ص٢٠٠.

(١١٥) ابن عبدالبر، الدُرر في اختصار المغازي والسيَرِ، ص٢٨٨.

وجاءت جماعة أخرى من المنافقين من غير أنصار ابن أُبيٍّ، يستأذنون رسول الله ﷺ من غير علِة، فأذن لهم، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً[(١١٦)].

ويظهر أن بعض الأعراب قد تأثروا بمواقف المنافقين المتخاذلة والمثبطة عن المسير مع رسول الله في غزوته، فذهبوا إلى رسول الله ﷺ واعتذروا إليه فلم يعذرهم الله تعالى. قال ابن إسحاق: وذكر لي أنهم نفرٌ من بني غفار[(١١٧)]، أما الواقدي فيؤكد في روايته أنهم كانوا اثنين وثمانين رجلاً[(١١٨)]. وكان رسول الله ﷺ يعتب على بعض الغفاريين تخلفهم عنه فيقول: "إن كان لمن أعزّ أهلي عليَّ أن يتخلف عني المهاجرون من قريش والأنصار وغفار وأسلم"[(١١٩)].

وحين أكمل الرسول ﷺ استعداده وهم بالتحرك نحو الروم تخلف ابن أُبيٍّ فيمن تخلف عن رسول الله ﷺ من المنافقين، وقال: "يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد، إلى ما لا قبل له به! أيحسب محمدٌ أن قتال بني الأصفر اللعب؟ ... ثم قال: والله لكأني أنظر إلى أصحابه غدًا مقرنين في الحبال"؛ وذلك إرجافًا برسول الله ﷺ وأصحابه[(١٢٠)].

(١١٦) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٥؛ ابن سعد، الطبقات، ٢/ ١٦٥؛ وقارن ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ٨/ ١٤٩.

(١١٧) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٧٥.

(١١٨) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٥؛ وقارن ابن سعد، الطبقات، ٢/ ١٦٥.

(١١٩) الواقدي، المغازي، ٣/ ١٠٠٢.

(١٢٠) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٥ - ٩٩٦؛ وقارن ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٧٩.

وفي حقيقة الأمر فإنها ليست المرة الأولى التي ينسحب فيها ابن أُبَيّ وأصحابه، ويحجمون عن ملاقاة العدو! ففي غزوة أُحُد (٣هـ/ ٦٢٤م) خرج وأنصاره مع المسلمين، حتى إذا كانوا بالشوط، بين المدينة وأحد انخذل بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس! فرجع بمن تبعه من قومه من أهل النفاق والريب[١٢١].

ويظهر أن تراجع ابن أُبيٍّ وانسحابه في اللحظات الأخيرة، لم يكن مجرد صدفة، بل أمرًا مقصودًا ومخططًا له والمراد منه إحداث البلبلة وإشاعة روح الهزيمة في نفوس المسلمين، لكن تطورات الأحداث أثبتت فشل مساعيه.

وقبل أن يتحرك رسول الله ﷺ من المدينة نحو الروم، استخلف على المدينة محمد بن مسلمة[١٢٢] وهو الثابت، كما قال ابن سعد[١٢٣]. وجاء في روايات شاذة أنه استخلف علي بن أبي طالب[١٢٤]. والثابت أن رسول الله ﷺ استخلف عليًا

(١٢١) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ٣/ ٧٢؛ وقارن الواقدي، المغازي، ١/ ٢١٩.

(١٢٢) محمد بن مسلمة بن خالد الأوسي الأنصاري، شهد بدرًا وأُحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا تبوك، ومات بالمدينة ولم يستوطن غيرها، توفي سنة ٤٦هـ. ابن الأثير، أُسد الغابة، ٤/ ٨٣ – ٨٥، (الترجمة: ٤٧٦٩).

(١٢٣) ابن سعد، الطبقات، ٢/١٦٥؛ وقارن ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٧٣.

(١٢٤) انظر، الزهري، المغازي النبوية، ص١١١؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢/ ٦٧.

على الأهل، قال ﷺ: "... ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع واخلفني في أهلي وأهلك ..."(١٢٥).

٨ - التحرك نحو الروم:

وعندما حانت ساعة التحرك من ثنية الوداع عقد رسول الله ﷺ الألوية والرايات، فدفع لواءه الأعظم لأبي بكر الصديق، ورايته العظمى إلى الزبير بن العوام، ودفع راية الأوس إلى أسيد بن الحضير، ولواء الخزرج إلى أبي دُجانة، ويقال إلى الحباب بن المنذر ابن الجموح(١٢٦).

وأمر رسول الله ﷺ الأوس والخزرج أن يحمل راياتهم أكثرهم أخذاً للقرآن. وكان أبو زيد يحمل راية بني عمرو بن عوف، وكان معاذ بن جبل يحمل راية بني سَلَمة(١٢٧).

وقال ﷺ لأصحابه: "استكثروا من النعال، فإنَّ الرجل لا يزال راكبًا ما دام منتعلاً"(١٢٨). ولا بد أن الناس أخذوا بنصيحة رسول الله ﷺ، وأقبلوا على الاستكثار من النعال.

وحسب رواية لدى الواقدي، فإنه قد خرج مع رسول الله ﷺ في وجهه ذاك أناس من المنافقين كثير، لم يخرجوا إلا رغبة في الغنيمة(١٢٩). ولما مضى رسول الله ﷺ

(١٢٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٧٣؛ وقارن البخاري، الصحيح، ص٩٠٩ (ح: ٤٤١٦).

(١٢٦) انظر الواقدي، المغازي، ٣/٩٩٦.

(١٢٧) الواقدي، المغازي، ٣/١٠٠٣.

(١٢٨) الواقدي، المغازي، ٣/٩٩٥.

(١٢٩) الواقدي، المغازي، ٣/ ١٠٠٠.

من ثنية الوداع سـائرًا، جعل يتخلف عنه الرجال، فيقال له: يا رسول الله! تخلف فلان. فيقول ﷺ: "دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه"(١٣٠).

وفي رواية لابن إسحاق، أن نفرًا من المسلمين أبطأت بهم النية عن رسول الله ﷺ، حتى تخلفوا عنه من غير شك ولا ارتياب، منهم: كعب بن مالك أخو بني سَلِمَة، ومُرارة بن الربيع أخو بني عمرو بن عوف، وهلال بن أُمية أخو بني واقف، وأبو خَيثمة أخو بني سالم بن عوف. وكانوا نفر صدق لا يتهمون في إسلامهم(١٣١).

وفي أثناء المسير، ضعف بعير أبي ذر الغفاري عن السير، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم أخذ يتبع أثر الرسول ﷺ ماشيًا، فقال القوم: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده! فقال رسول الله ﷺ: "كن أبا ذر" فلما تأمله القوم، قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر. فقال رسول الله ﷺ: "رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده"(١٣٢).

---

(١٣٠) ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٧٧ – ١٧٨؛ الواقدي، المغازي، ٣/١٠٠٠.

(١٣١) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٧٢؛ الواقدي، ٣/٩٩٦ – ٩٩٧.

(١٣٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٧٨؛ الواقدي، المغازي، ٣/ ١٠٠٠.

أما أبو خَيْثَمة[١٣٣]، فقد تخلف عن رسول الله ﷺ وبقى في المدينة، وفي ذات يوم وهو عائد إلى أهله ظُهرًا وجد كل واحدة من نسائه، قد أعدت له فراشًا حسنًا وطعامًا طيبًا، فتذكر رسول الله ﷺ وما هو فيه من عناء ومشقة في سبيل الله، فلامَ نفسه وقال: "رسول الله ﷺ في الضَّحِّ والرِّيح والحَر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء في ماله مقيم! ما هذا بالنصف.." وآلى على نفسه ألا يدخل منزله وطلب من أزواجه إعداد ما يلزم المسافر من طعام وغيره، وخرج في أثر رسول الله ﷺ ... حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل. فقال رسول الله ﷺ: "كن أبا خيثمة"؛ فقالوا: يا رسول الله، هو والله أبو خيثمة ... فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير[١٣٤].

وعلى الرغم من محدودية عدد الذين لم ينشطوا لمرافقة رسول الله ﷺ في غزوته، أو لم يكونوا مستعدين للخروج، ولو أن بعضهم لحقوا برسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك، إلا أن واشنطن إيرفنج (Washington Irving) يبالغ في تصوير ما حدث، وكأنه يتحدث عن أزمة عصيان في الجيش، إذ يقول:

(١٣٣) أبوخيثمة: عبدالله بن خيثمة الأنصاري من الخزرج، شهد أُحدًا مع النبي ﷺ، وبقي حتى أيام يزيد بن معاوية، وهو الذي لحق النبي ﷺ وهو بتبوك، فقال: "كن أبا خيثمة". ابن الأثير، أسد الغابة، ٤/ ٤٣١، (الترجمة: ٥٨٦٠).

(١٣٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٧٤؛ الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٨ – ٩٩٩.

"... واجه هذا الجيش صعوبات في اجتياز الصحراء بهذا الفصل القائظ، فرجع الكثير منهم في اليوم الثاني للمسير، وآخرون في اليوم الثالث، وآخرون في اليوم الرابع..."(١٣٥).

وهو هنا لم يحدد أعداد الذين رجعوا من أفراد الجيش، وبدلاً من ذلك يطلق صفة الكثرة. وهذا قول مردود لأن الذين تخلفوا من المعذّرين من الأعراب ومن المنافقين ومن الذين أبطأت بهم النية وهم رجال صدق لا يشك في إيمانهم، كل هؤلاء معروفون وصرحت بأعدادهم مصادر السيرة النبوية، فلا مجال للتخرصات هنا(١٣٦).

وكان دليل رسول الله ﷺ في غزاته تلك علقمة بن الفغواء الخزاعي(١٣٧)، وإنه لمن شبه المؤكد أن رسول الله ﷺ لن يغامر بحياة جيشه في هذا السفر الطويل والمهمه القفر معتمدًا على دليل واحد، قد يصيبه ما يصيبه من عاديات الدهر، لذلك فلا بد أن الرسول ﷺ قد احتاط لأمره واستعان بأكثر من دليل.

(١٣٥) واشنطن، إيرفنج، محمد ﷺ وخلفاؤه، ترجمة ومقارنة هاني يحيى نصري، الطبعة الأولى (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٩م)، ص٣٨٤.

(١٣٦) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٧٢-١٧٣؛ الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٥-٩٩٩؛ ابن سعد، الطبقات، ٢/ ١٦٥-١٦٦.

(١٣٧) الواقدي، المغازي، ٣/ ٩٩٩؛ وانظر محمد بن الحسن بن دريد، الاشتقاق، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الأولى (بيروت: دار الجيل، ١٤١١هـ)، ص٤٧٧، والفغواء: أول ما يبدو نور الشجر. انظر ترجمة ابن الفغواء عند ابن الأثير، أسد الغابة، ٣/ ٢٧٩-٣٨٠.

وحسب ما يظهر من بعض المصادر فإن الجيش قد جُهِّز في ظروف استثنائية بالغة القسوة؛ بسبب الجدب وحرارة الجو وقلة ذات اليد. وقد أشار ابن إسحاق إلى شيء من هذا فقال: إن التهيؤ لغزو الروم تم في زمان من عُسرة الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم(١٣٨).

وجاء في رواية عند الطبري وهو يتحدث عما أصاب الناس من جهد ومشقة في غزوتهم تلك، أن الناس خرجوا في غزوة تبوك، أي غزوة العُسرة، الرَّجلان والثلاثة على بعير، وخرجوا في حر شديد، وأصابهم يومئذ عطش شديد، فجعلوا ينحرون إبلهم، فيعصرون أكراشها، ويشربون ماءها، وكان ذلك عُسرة من الماء، وعُسرة من الظَّهْر، وعُسرة من النفقة(١٣٩).

وينقل الطبري بسنده عن مجاهد وهو يتحدث عن غزوة العُسرة، قال: أصابهم جهد شديد حتى أن الرجلين يشقان التمرة بينهما، وإنهم ليمصون التمرة الواحدة ويشربون عليها الماء(١٤٠).

ويزيد القرطبي الصورة قتامة وبؤسًا في وصفه لحال الناس في غزاتهم تلك، فيقول: "كانت العسرة من المسلمين

---

(١٣٨) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ١٦٩/٤؛ وقارن موسى بن عقبة، المغازي، ص٢٩٤.

(١٣٩) الطبري، جامع البيان، ٥٠/١٢؛ ابن سعد، الطبقات، ١٦٧/٢.

(١٤٠) الطبري، جامع البيان، ٥١/١٢.

يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم، وكان زادهم التمر المسوس، والشعير المتغير، والإهالة [الشحم] المنتنة، وكان النفر يخرجون ما معهم إلا التمرات بينهم، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى تأتي على آخرهم، فما يبقى من التمرة غير النواة(١٤١).

وفي هذه الغزوة أيضًا أصاب القوم مجاعة، فقال عمر بن الخطاب، يا رسول الله لو جمعت ما بقي من أزواد القوم فدعوت الله عليها، قال ففعل، فجاء ذو البُر ببُره وذو التمر بتمره، قال: (وقال مجاهد: وذو النوى بنواهُ). قلت: وما كانوا يصنعون بالنوى؟ قال: كانوا يمصونه ويشربون عليه الماء..."(١٤٢).

هذه الصور شديدة القتامة والناطقة بالبؤس والجوع، لا شك أنها على قدر من المبالغة، وإلا فما عسى تمرة واحدة تلوكها أفواه النفر من الناس، ويشربون عليها الماء، ثم تكفيهم الجوع والمسغبة! بل ما عسى مص نوى التمر أن يفعل في البطون الخاوية والأجساد المرهقة! ثم ما أثر ذلك كله على صحتهم وما قد يترتب عليه من انتشار الأمراض المعدية بينهم؟

---

(١٤١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢٤٢٧/٤؛ وقارن الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، ٢٦٣/٢.

(١٤٢) مسلم، صحيح مسلم، ٥٥/١-٥٦، (ح: ٤٤)، وقارن في المصدر نفسه، ص٥٦-٥٧، (ح: ٤٥).

على كلّ، فإن هذه الحالة من العَوز، كانت حالة طارئة، ولم تكن ملازمة لجيش المسلمين طيلة مسيرته نحو الشمال؛ لأنه حين واجه المسلمون المجاعة وأشرفوا على الهلاك، وهموا بنحر بعض إبلهم، واستأذنوا رسول الله في ذلك، ولم يكد يأذن لهم حتى تدخل عمر بن الخطاب، وطلب من رسول الله ﷺ أن يدعوهم بفضل أزوادهم ثم يدعو الله لهم عليها بالبركة.

جاء عند مسلم بسنده عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد (شك الأعمش) قال: "لمَّا كان غزوة تبوك، أصاب الناس مجاعة. قالوا: يا رسول الله! لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادّهَنّا. فقال رسول الله ﷺ "افعلوا" قال فجاء عمر، فقال: يا رسول الله، إن فعلت قلّ الظَّهْرُ. ولكن ادعهم بفضل أزوادهم. ثم ادع الله لهم عليها بالبركة. لعل الله أن يجعل في ذلك، فقال رسول الله ﷺ: "نعم"، قال فدعا بنطع فبسطه. ثم دعا بفضل أزوادهم. قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذرة. قال: ويجيء الآخر بكف تمر. قال: ويجيء الآخر بكسرة. حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير. قال: فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة. ثم قال: "خذوا في أوعيتكم" قال فأخذوا في أوعيتهم. حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوه. قال: فأكلوا حتى شبعوا. وفضلت فضلة. فقال رسول الله ﷺ: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله. لا يلقى الله بهما عبد، غير شاك، فيحجب عن الجنة"[١٤٣].

(١٤٣) مسلم، صحيح مسلم، ١/٥٦-٥٧، (ح: ٤٥)؛ أحمد بن حنبل، المسند، ٣/١١.

وكذلك الأمر فيما يخص الماء وندرته، فقد حدث أن مَرّ الجيش بأزمة أو أكثر في مواجهة العطش وخطر الفناء. حيث جاء عند ابن سعد أن المسلمين في غزوة العُسرة خرجوا في حرّ شديد، فأصابهم يومًا عطش شديد حتى جعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أكراشها ويشربون ماءها(١٤٤).

وجاء في الرواية التالية، والتي ربما كانت تفصيلاً للرواية السابقة، حيث ذكر الطبري رواية عن ابن عباس ".. أن الرجل من شدة العطش لينحر بعيره ويعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيرًا، فادع لنا. قال: "أتحب ذلك؟" قال: نعم. فرفع رسول الله ﷺ يديه، فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فأظلت ثم سكبت، فملأوا ما معهم..."(١٤٥).

وهكذا فكلما واجه المسلمون وهم في مسيرتهم نحو الشام عوزًا من طعام أو ماء تداركهم لطف الله ورعايته، وذلك ببركة دعاء رسول الله ﷺ بأن يفرج عنهم كرباتهم، ويتفضل عليهم ببركة الطعام ومطر السماء.

لقد استشهدنا بالروايات السابقة للتدليل فقط على مدى صعوبة تجريد جيش بهذا الحجم ليقطع مسافة طويلة، ربما كانت أطول وأبعد مسافة قطعها رسول الله ﷺ بنفسه منذ

(١٤٤) ابن سعد، الطبقات، ٢/ ١٦٧؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٥/ ٢٢٧.

(١٤٥) الطبري، جامع البيان، ١٢/ ٥١-٥٢. وانظر حال هذه الرواية في تعليق السندي عليها، الذهب المسبوك، ص ٤٩-٥٢؛ وقارن ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٧٦؛ الواقدي، ٣/ ١٠٠٨-١٠٠٩.

بدأ نشاطه الجهادي؛ وهذا الجيش يعاني ما يعانيه من شدة الجوع وسوء التغذية، التي لا بد أن لها أثرًا سلبيًا على صحة أفراده ومعنوياتهم القتالية.

لذلك فلا بد أن الأمر يختلف بعض الشيء عما تناقلته الروايات السابقة، وأن أحوال المسلمين المادية في تلك الغزوة لم تكن على هذه الدرجة من السوء.

على كلّ، إذا كانت هذه الصور هي بعض مما عانى جيش غزوة العُسرة من الجوع وندرة الطعام، فما حال الدواب التي اعتمد عليها في مسيرته الطويلة؟ أخذًا بالاعتبار أن السنة كانت مجدبة والغزوة تمت في حَمَّارة القيظ وشدته؟ الملاحظ أن المصادر التي تحدثت عن الغزوة لم تذكر شيئًا عن ندرة الماء أو العلف للدواب!

وإذا كان للباحث أن يسلم بمصداقية الروايات التي تحدثت عن شدة الحر وعن الجدب والقحط الذي كان سائدًا في عام الغزوة فإن النتيجة المتوقعة منطقيًا هي نفوق كثير من دواب الجيش بسبب شدة العطش، وربما لندرة الأعلاف أيضًا، لكن ذلك لم يحدث، إذ إن المصادر لم تشر إلا إلى حالتين، اضطر فيها أصحابها إلى التخلص من جمالهم(١٤٦).

(١٤٦) الحالة الأولى تتعلق بأبي ذر الغفاري الذي اضطر إلى ترك جمله حين ضعف عن السير. انظر ابن هشام، ٤/ ١٧٨؛ الواقدي، المغازي، ٣/ ١٠٠٠. أما الحالة الثانية فهي متصلة ببعير رافع بن مكيث الجهني الذي نحره وأخذ منه حاجته وتركه للناس. ولم تذكر الرواية سبب نحر الجمل، فربما بسبب هزاله أو غير ذلك من الأسباب. انظر الواقدي، المغازي، ٣/ ١٠٣٣.

أي بمعنى آخر أن الجمال التي قيل: إن عددها يتراوح بين (١٢- ١٥) ألف جمل لم يصب منها سوى اثنين!

أما الخيل التي قيل إن عدتها بلغت عشرة آلاف فرس، فيظهر أنها لم تصب بأي أذى! أما الخسائر البشرية فلم تسجل سوى حالة وفاة واحدة[147]. وهنا لا بد من التوقف عند أعداد الإبل والخيل وما تحتاجه من ماء وعلف. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: كيف تم تأمين العلف للإبل التي قيل: إن عددها يتراوح بين (١٢-١٥) ألف بعير؟ سيما وأن السنة مجدبة، والوقت في شدة القيظ وحرارته، مما يعني القضاء على العشب، إن كان هناك عشب!

ربما يقال إنهم كانوا يحملون معهم علف دوابهم. ولكن كم سيحملون؟ ما دام أن بعض الروايات تقول إن الرجلين والثلاثة يتعاقبون بعيرًا واحدًا! وإذا كان البعير يطيل مطال الجوع والعطش لأكثر من أسبوع، بل ربما عشرة أيام أو تزيد، فماذا عن الخيل؟ ماذا عن سقياها وعلفها؟ جاء في أحد المواقع على الشبكة العنكبوتية: أن الخيل تحتاج إلى الماء بصورة يومية، وأن مقدار حاجتها إليه تعتمد على سنها وعلى نوع العلف الذي تتغذى عليه "رطبًا أو جافًا"، وكذلك نوع

(١٤٧) الذي توفي في غزوة العُسرة في تبوك هو عبدالله ذو البجادين، وهو ابن عبد نهم بن عفيف بن ثعلبة، وكان اسمه عبدالعزى، فسماه رسول الله ﷺ عبدالله، صحب رسول الله ﷺ وأقام معه وسار معه في غزوة الروم وتوفي بتبوك، وحضر رسول الله ﷺ دفنه ودعا له بخير. انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٨٢؛ الواقدي؛ المغازي، ٣/ ١٠١٣-١٠١٤؛ ابن كثير، أُسد الغابة، ٢/ ٥٨٨ (الترجمة: ٢٩٣٠).

النشاط الذي تقوم فيه. وحسب ما جاء في الموقع فإن الفرس تحتاج يوميًا إلى قدر من الماء يتراوح ما بين (٣٠-٤٠) لترًا تقريبًا[١٤٨].

فإذا كانت الخيل في تلك الغزوة عشرة آلاف كما قيل، وفُرض أن الواحد منها يحتاج إلى أربعين لترًا من الماء يوميًا، فإنَ ذلك يعني بالضرورة توفير (٤٠٠) ألف لتر ماء يوميًا! وإذا فُرض أن قربة الماء الواحدة تتسع في المتوسط لعشرين لترًا، فإَن الجيش يحتاج إلى توفير (٢٠) عشرين ألف قربة لحمل الماء لسقاية الخيل وحدها في اليوم الواحد! ناهيك عن القدر الكبير من العلف الذي يُحتاجُ إليه في هذه المسيرة الطويلة.

خلاصة هذا الاستطراد هو أن ما قيل عن أعداد الإبل والخيل المرافقة للغزوة، هي أقوال تفتقر إلى الدقة وتحتاج إلى التوقف والمراجعة.

إن هذا الجيش الذي أظهرت المصادر بعضٍ وجوه معاناته، اضطر لقطع مسافة تقدر بنحو (٧٥٠ كيلاً) تقريبًا، حتى وصل إلى تبوك، وربما أنه استغرق (١٥) يومًا لقطعها إذا وضعَ في الاعتبار أنه يسير في الليل ويستريح في النهار، وعلى فرض أنه يقطع في الليلة الواحدة (٥٠ كيلاً)، أي بمعدل خمسة أكيال في الساعة ولمدة عشر ساعات في الليلة الواحدة.

(148) www.frosih.com/bvb/showthcead.php:+4896.

٩ - الوصول إلى تبوك:

بعد مسيرة طويلة ومرهقة وصل المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ إلى مشارف الشام، أي إلى تبوك؛ ولكنهم فوجئوا بأنهم لم يجدوا أثرًا لجيش الروم! فما الذي حدث؟ ألم يكن تهديد الروم صحيحًا؟ أم كان مجرد خدعة؟ وهل كان ما جاء عند الواقدي دقيقًا من أن هرقل لم يرد غزو المدينة ولم يهم به، وأن الخبر كان من أساسه باطلاً(١٤٩).

يبدو أن الأمر على خلاف ما جاء عند الواقدي، وأن الروم كانوا قد اتخذوا العدة لاختبار قوة المسلمين ومدى استعدادهم للمواجهة، فلما رأوا منهم الجد أوقفوا خططهم، أو كما جاء عند البلاذري حيث قال: "... فلما سار إليهم الرسول ﷺ هابوا محاربته..."(١٥٠). وذكر بعض الدارسين المحدثين أن المعلومات التي وصلت الروم عن ضخامة جيش المسلمين وقوة معنوياته اضطرتهم إلى الانسحاب من تبوك شمالاً(١٥١).

ولا صحة كذلك لما زعمه بول (Buhl) من أن سكان تبوك من الروم وعاملة وجذام قد هربوا منها عند وصول رسول

---

(١٤٩) الواقدي، المغازي، ٣/ ١٠١٩.

(١٥٠) البلاذري، أنساب الأشراف، ١/٣٦٨.

(١٥١) محمود شيت خطاب، الرسول القائد، الطبعة الثانية (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠م)، ص٢٧٣؛ انظر عبدالرحمن أحمد سالم، المسلمون والروم في عصر النبوة (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، ص١١٤؛ شوقي أبو خليل، في التاريخ الإسلامي، الطبعة الأولى (دمشق: دار الفكر، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م)، ص٢٠٦-٢٠٧.

الله ﷺ إليها[١٥٢]. حيث إن المصادر الإسلامية التي تحدثت بصورة مفصلة عن الغزوة وعن مدة مقام الرسول ﷺ في تبوك لم تشر لا من قريب ولا من بعيد إلى سكان تبوك، سواءً كانوا من الروم أو من غيرهم.

وذكر البلاذري في رواية أخرى أن رسول الله ﷺ وصل إلى تبوك ولم يلق كيدًا، وأنه صالح أهلها على الجزية[١٥٣]. واللافت في هذه الرواية المتعلقة بالجزية أنه لا يوجد لها أثر لدى المؤرخين مثل موسى بن عقبة وابن إسحاق، ولا الواقدي كذلك. يضاف إلى هذا أن الرواية جاءت دون سند يمكن الرجوع إليه مما يقلل من قيمتها.

ولعل ما يحيط رواية البلاذري بالغموض والشك هو بخصوص صلح تبوك وجزيتها، لأن نصوص مصالحة النبي ﷺ مع بلدان شمال الحجاز قد وصلت كاملة تقريبًا ما عدا تبوك[١٥٤].

---

(١٥٢) بول، دائرة المعارف الإسلامية، مادة "تبوك"، ٤/ ٥٧٥.

(١٥٣) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: عبدالله وعمر أنيس الطباع (بيروت: مؤسسة المعارف، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص٧٩ –٨٠.

(١٥٤) انظر ابن سعد، الطبقات، ١/ ٢٨٩–٢٩١ ؛ وقارن البلاذري، فتوح البلدان، ص ٧٩–٨١ ؛ محمد بن فارس الجميل، "النبي ﷺ واليهود في شمال الحجاز" (٧ –٩هـ/ ٦٢٨–٦٣٠م) "قراءة نقدية"، جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون الخليج العربية، اللقاء العلمي السنوي العاشر (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م)، ص٢٧٩ – ٣٢٩؛ وانظر أيضًا محمد حميدالله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، الطبعة الرابعة (بيروت: دار النفائس، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ص١١٦–١٢١.

لذلك فـربما أن عـدم وجـود مـعـاهـدة أو اتـفـاق صلـح بين النبي ﷺ وأهل تبوك راجع إلى كونهم ليسـوا أهل كتاب، بل ربما أنهم وثنيـون، ولم يكونوا من الكثـرة العـددية ورهبـة الجـانب حـتى يضطر المسلمـون إلى إبرام العـهـود والمواثيق معهم.

وقـيل إنه في أثناء مـقـام رسـول الله ﷺ في تبـوك، بعث دحية الكلبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، وأن هرقل أرسل أحد بني تنوخ ليتعرف على أحوال النبي وأمارات نبوته حين مـقـامـه في تبـوك، وأن رسـول الله ﷺ أمـر لـه بجـائزة[١٥٥]. والملاحظ في هذا الخصوص أن ابن إسحاق لم يشر إلى مكاتبة النبـي ﷺ إلى هرقل في تبـوك. ويلاحظ كـذلـك أن الواقـدي أشار إلى جزء من الخبر وهو أن هرقل أرسل أحد رجال تنوخ إلى النبي ﷺ وهو في تبوك ليتعرف إلى أمارات نبوته[١٥٦].

وقد شكك بعض الدارسين في صحة المراسلة بين الفريقين، وقالوا بضعف رواياتها[١٥٧].

ومما هو جـدير بالذكـر أن غـزوة الـعُسـرة كـانت ذات نـتـائج إيجـابيـة على جـانب كـبيـر من الأهـميـة، ربما أنـهـا لم تكن في

(١٥٥) أحمد بن حنبل، المسند (القاهرة: مؤسسة قرطبة، د. ت) ٣/ ٤٤١ - ٤٤٢؛ حميد بن زنجويه، كتاب الأموال، تحقيق: شاكر ذيب فياض، الطبعـة الأولى (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ٢/ ٥٨٥ (ح: ٩٦١)؛ السُهيلي، الروض الأنف، ٣/ ١٩٦؛ القسطلاني، المواهب اللدنية، ١/ ٣٥٠.

(١٥٦) الواقدي، المغازي، ٣/ ١٠١٨-١٠١٩.

(١٥٧) انظر حميد بن زنجويه، كتاب الأموال، ٢/٥٨٥-٥٨٦ (حواشي المحقق)، وقارن أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٥٣٥.

الحسبان من قبل، ففي أثناء مقام رسول الله ﷺ في تبوك تمكن من إبرام معاهدات الصلح والإقرار له بدفع الجزية مع كل من: أيلة وأذرُح والجرباء ومقنا ومدين ودُومة الجندل[١٥٨]. وبذلك تيسر لرسول الله ﷺ إخضاع سكان هذه المناطق لدولة الإسلام، وأصبحت بلاد الحجاز بأكملها تحت سلطانه[١٥٩]. ويضيف أحد الدارسين قائلاً: "وبوصول النبي ﷺ إلى تبوك وإخضاعه لمستوطنات شمال الحجاز لنفوذ دولته، فإن ذلك يعد أكبر إنجاز للمسلمين في تاريخ الصراع بينهم وبين الروم في حياة الرسول ﷺ، إذ إن ذلك قد ضمن ولاء التجمعات الدائرة في فلك الروم وتحييدها في ذلك الصراع الدائر بين المسلمين وبينهم"[١٦٠]. والحقيقة أنه يصعب التسليم بهذه النتيجة على إطلاقها، إذ إنه ما دام أن النبي ﷺ قد ضمن ولاء تلك التجمعات وإقرارها له بالسلطان والتبعية، فلا معنى لتحييدها هنا.

وأخيرًا، فإنه يمكن القول إن غزوة العُسرة وما أسفرت عنه من نتائج كان من أهمها أنه قد أصبح لدولة المسلمين بالمدينة

(١٥٨) انظر الجميل، "النبي محمد ﷺ واليهود في شمال الحجاز"، ص٢٩٧-٣١٠.

(١٥٩) محمد جمال الدين سرور، قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة النبي ﷺ (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م)، ص١٦٣.

(١٦٠) عبدالرحمن أحمد سالم، المسلمون والروم، ص١١٦؛ وانظر أحمد الشبول، "علاقات الأمة الإسلامية في العصر النبوي مع بلاد الشام وبيزنطة"، الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين (الرياض: مطابع جامعة الملك سعود، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م)، ١/١٥٧-١٧٧.

وللمـرة الأولى حدود مشـتركة مع الإمبـراطورية البيـزنـطيـة (إمـبـراطـورية الروم)، والتي يمكن اعتبـارها المقـدمـة الأولى لملحـمـة الفـتـوحـات الإسـلامـيـة الكبـرى فـي عصـر الخـلافـة الراشدة.

١٠ - العودة إلى المدينة:

مكث الرسـول ﷺ في تبـوك بضع عشـرة ليلة، ثم انصـرف عـائدًا إلى المـدينة[١٦١]. وجـاء في مـصـدر آخـر أنه أقـام في تبـوك عـشـرين ليلة، وهرقل يومـئـذ بحـمـص[١٦٢]. وكـان مع رسـول الله ﷺ مدة إقـامتـه في تبـوك زوجه أم سلمـة بنت أبي أمية المخـزومية[١٦٣]. ووجود أم سلمة مع رسـول الله ﷺ يقود إلى الاحتمال أن بعض نساء المسلمين كن مرافقات للحملة.

وكـان رسـول الله ﷺ طيلة مـدة بقـائه في تبـوك يتـحـرى الأخبار عن الروم وزحفهم المنتظر تجاه المدينة، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، فـاجتمع بأصحـابه واستشـارهم أيمضي إلى الشـام أم يعود إلى المدينـة؟ فقـال عمـر بن الخطاب: "إن كنت أُمرت بالمسير فسـر"، قـال رسول الله ﷺ: "لو أُمرت بالمسيـر ما استشـرتكم فيه". ثم إن عمر قال: "يا رسول الله، فإن للروم

(١٦١) ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/ ١٨١.

(١٦٢) الواقدي، المغازي، ٣/ ١٠١٥.

(١٦٣) الواقدي، المغازي، ٣/ ١٠٣٦؛ أم سلمة، واسمها هند بنت أبي أُمية من بني مخزوم، وأبوها سُهيل زاد الركب بن المغيرة المخزومي، تزوجها رسـول الله ﷺ بعد وفاة زوجها أبي سلمة، وهو عبدالله بن عبدالأسـد، وكـان زواج رسـول الله ﷺ منهـا في شـوال سنة ٤هـ، وتوفـيت سنة ٥٩هـ. انظر ابن سعد، الطبقات، ٨/ ٨٦ - ٨٧ وما بعدها.

جموعًا كثيرة... وقد دنوت منهم، حيث ترى، وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى، أو يُحدِثُ الله عز وجل لك في ذلك أمرًا"(١٦٤).

وحسب هذه الرواية فقد قرر رسول الله ﷺ العودة إلى المدينة، وعلى كل، إن كانت هذه الرواية دقيقة، فهي تثير التساؤل حول ما جاء عند ابن كثير وغيره من المفسرين من أن التوجه إلى محاربة الروم كان أمرًا إلهيًا(١٦٥). ومن اللافت في هذا الصدد أن البيهقي يرى أن سبب عودة النبي ﷺ من تبوك، مرجعه إلى أمر إلهي، قال: "فأمره الله عز وجل بالرجوع إلى المدينة. وقال: فيها محياك ومماتك"(١٦٦). ويظل مثل هذا الزعم يعوزه الدليل.

ويرى الصالحي أن أحد أسباب رجوع النبي ﷺ عن غزوة الشام هو انتشار وباء الطاعون فيها. وأن رسول الله ﷺ قال في غزوة تبوك: إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها، وإذا كنتم بغيرها فلا تقدموا عليها"(١٦٧).

ويلاحظ أن بعض المستشرقين المهتمين بالسيرة النبوية حاولوا تقديم تفسيرات مختلفة لقرار النبي ﷺ العودة إلى

(١٦٤) انظر الواقدي، المغازي، ٣/١٠١٩.

(١٦٥) انظر الطبري، جامع البيان ...، ١١/٤٠٧؛ الزمخشري، الكشاف، ٢/ ٢٣٦؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٤/٣٣٢٥ ؛ ابن كثير، تفسير القرآن، ٣/ ٥٣.

(١٦٦) البيهقي، دلائل النبوة، ٥/ ٢٥٤.

(١٦٧) الصالحي، سُبل الهدى، ٥/ ٤٦٢ ؛ أحمد بن حنبل، المسند، ٣/ ٤١٦.

المدينة، وتفسيراتهم تلك تفتقر إلى السند التاريخي، فمن هؤلاء واشنطن إيرفنج، الذي يعلل قرار العودة إلى المدينة بأن الجيش في تبوك تعرض لتغلغل بعض المخبرين من جانب العدو مما أضعف من معنوياته، وعندما لاحظ الرسول ﷺ أثر ذلك بتخلف قواته، وأنه لم يبق منها سوى النصف استشار أصحابه فقرر العودة إلى المدينة(١٦٨).

أما إميل درمنغم (E. Dermenghem)، فيقدم تفسيرًا في منتهى الغموض والتناقض إذ قال : ومن المحتمل أيضًا أن يكون المسلمون قد عدلوا عن مواصلة زحفهم حينما كانوا يظنون أن هرقل لم يجهز جيشًا لغزو المدينة، وأنه لم يصد عرب الشمال عن الإسلام كما اتفق هو ومحمد على ذلك سرًا(١٦٩). ولم يبين درمنغم كيف تم الاتفاق بين النبي ﷺ وهرقل، ومتى؟ وأين ؟!

ويعزو بروكلمان قرار عودة النبي ﷺ إلى المدينة إلى الإرهاق البدني الذي عانى منه الرسول ﷺ واستشعر وطأة السن العالية لذلك حسب بروكلمان: لعله اقتنع بأن خططه للهجوم على الروم أمست ليست ذات جدوَى(١٧٠).

(١٦٨) واشنطن، محمد وخلفاؤه، ص٣٩٠.

(١٦٩) إميل درمنغم، حياة محمد، ترجمة عادل زعيتر، الطبعة الثانية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٨م)، ص٣٥٧ - ٣٥٨.

(١٧٠) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٦٥؛ وقارن بول، مادة "تبوك" في دائرة المعارف الإسلامية، ٤/ ٥٧٥.

لكن ما قيل عن طاعون الشام وأنه ربما يكون أحد أسباب عودة النبي ﷺ إلى المدينة، هو قول يفتقر إلى دليل، إذ إن مصادر السيرة التي تطرقت إلى غزوة العُسرة لم تشر إلى أمر انتشار الطاعون في الشام في ذلك الوقت. إضافة إلى أن حديث الطاعون المنسوب إلى جد عكرمة بن خالد المخزومي، لم يشر صراحة إلى وقوع الطاعون في الشام آنذاك، ولم يذكر أنه كان من أسباب عودة النبي ﷺ إلى المدينة(١٧١).

أما التفسيرات التي قدمها بعض المستشرقين بخصوص العودة إلى المدينة، فهي مزاعم تفتقر إلى الأدلة، إذ إنها لا تعدو كونها اجتهادات فردية وليس لها سند من الواقع، لذلك فمن الصعوبة بمكان الأخذ بها، ولا تستحق التوقف والمناقشة، لأنها تقوم على تخرصات لا قيمة لها.

ولكن لعل الاحتمال الأقرب إلى الصواب بخصوص عودة النبي ﷺ إلى المدينة دون مهاجمة الروم في الشام، يعود إلى ما أشار به عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ وهو العودة إلى المدينة هذا العام، وانتظار ما يحدث، خصوصًا أن المسلمين في أثناء مقامهم في تبوك لم يلاحظوا بوادر خطر وشيك.

إجمالاً يمكن القول بأن خروج النبي ﷺ إلى الشام لمواجهة الروم لم يكن قرارًا طوعيًا، بل اضطراريًا، حيث إن رسول الله استشعر خطر هجوم الروم على بلاده حسب ما بلغه من أخبار - ربما أكثر من مصدر - لذلك فقد قرر نقل المعركة إلى أرض العدو. ولا بد أن ما وصله من أخبار عن العدوان

---

(١٧١) انظر ابن حنبل، المسند، ٣/ ٤١٦.

الرومي الوشيك، كانت أخبارًا صحيحة، ودليل صحتها ما نزل من الآيات في سورة التوبة مثل قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨] ، وقوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٤١] ، وقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧] .

فهذه الآيات الكريمة يفهم من ظاهرها دون إشكال أنها تتحدث عن خطر وشيك وأنها تحث المسلمين على الاستعداد له ومواجهته ودفعه.

على كل، بعد أن أمضى رسول الله ﷺ بتبوك قرابة عشرين يومًا، ولم يتبين له ما يشير إلى خطر الروم، وبعد أن أبرم عدة اتفاقيات ومعاهدات مع بلدات شمال الحجاز، وأصبحت خاضعة لسلطان الإسلام، قرر العودة إلى المدينة بعد استشارته بعض أصحابه.

ولما غادر الرسول ﷺ تبوك في طريقه إلى المدينة، وكان قد خرج معه من المنافقين "ناس كثير لم يخرجوا إلا رجاء الغنيمة"(١٧٢). وقد بدرت منهم في أثناء خروجهم مع النبي ﷺ إلى الروم وفي طريق العودة إلى المدينة بعض البوادر السيئة التي تنم عن سوء طويتهم، ولعل أخطر ما ظهر منهم، المؤامرة على حياة رسول الله ﷺ وهو في طريق عودته إلى المدينة!

جاء عند الواقدي رواية دون سند، مفادها أنه لما كان رسول الله ﷺ في بعض الطريق، مكر به أُناس من المنافقين

(١٧٢) الواقدي، المغازي، ٣/ ١٠٠٠.

وتآمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق ... إذ سمع رسول الله ﷺ حِسَّ القوم قد غَشَوه فَغَضِبَ ﷺ وأمر حُذيفة أن يَرُدّهم، فجعل حُذيفة يضرب وجوه رواحلهم، فانحطوا من العقبة مسرعين، حتى خالطوا الناس[١٧٣]. ويضيف الواقدي أن أهل العقبة من المنافقين الذين تآمروا على حياة رسول الله ﷺ كانوا ثلاثة عشر رجلاً، سماهم رسول الله ﷺ لحذيفة وعمار[١٧٤].

وفي رواية البيهقي عن مؤامرة المنافقين، ذكر أسماء اثني عشر رجلاً منهم[١٧٥]. وقد تحدث ابن كثير بشيء من التفصيل عن مؤامرة العقبة، وأشار إلى أن عدة المتآمرين أربعة عشر أو خمسة عشر، وأن رسول الله ﷺ عذر منهم ثلاثة، قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر الباقين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد[١٧٦].

ولم تتوقف محاولات المنافقين على قتل رسول الله ﷺ والتخلص منه ومن دعوته عند هذا الحد بل تعدت ذلك إلى بناء مسجد بالمدينة خاص بهم للتفريق بين المؤمنين وللتمكين لبعض زعامات المنافقين، قال ابن إسحاق: "ثم أقبل رسول

---

(١٧٣) الواقدي، المغازي، ٣/ ١٠٤٢ – ١٠٤٣؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٥/ ٢٥٦ – ٢٥٩.

(١٧٤) الواقدي، المغازي، ٣/ ١٠٤٤؛ ومما تجب ملاحظته هنا أن ابن إسحاق وكذلك ابن سعد لم يشيرا إلى أمر العقبة ومحاولة المنافقين اغتيال رسول الله ﷺ!

(١٧٥) البيهقي، دلائل النبوة، ٢٥٨/٥ – ٢٥٩.

(١٧٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٨٣/٧ – ١٨٧.

الله ﷺ حتى نزل بذي أوان - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار - وكان أصحاب مسجد الضرار، قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال:" إني على جناح سفر، وحال شُغل"، أو كما قال ﷺ، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه". فلما نزل بذي أوان عند عودته من تبوك أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أو أخاه عاصم بن عدي أخا بني العجلان، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه. وكان الذين بنوه اثنا عشر رجلاً، منهم خذام بن خالد وثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير، وغيرهم"(١٧٧).

وكان قد قام على بناء هذا المسجد، أي مسجد الضِّرار، جماعة من المنافقين، قال عنهم عاصم بن عدي(١٧٨): كانوا يجتمعون في مسجدنا، فإنما هم يتناجون فيما بينهم، ويلتفت بعضهم إلى بعض، فيلحظهم المسلمون بأبصارهم فشق ذلك عليهم، وأرادوا مسجدًا يكونون فيه لا يغشاهم فيه

(١٧٧) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/١٨٣ - ١٨٤؛ الواقدي، المغازي، ٣/١٠٤٥ - ١٠٤٩، وقال الواقدي معلقًا على خبر المسجد إنه لما نزل رسول الله ﷺ بذي أوان راجعًا من تبوك أتاه خبره وخبرُ أهله من السماء. انظر الواقدي، ٣/١٠٤٦.

(١٧٨) عاصم بن عدي: ابن الجد بن العجلان، البلوي، حليف الأنصار، شهد أُحدًا وما بعدها، توفي سنة ٤٥هـ، انظر ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ٢/٩٧٠ - ٩٧١ (الترجمة: ٤٣٥٥).

إلا من يريدون ممن هو على مثل رأيهم، فكان أبو عامر[١٧٩] يقول: لا أقدر أن أدخل مربدكم هذا وذلك أن أصحاب محمد يلحظونني وينالون مني ما أكره، قالوا: نحن نبني مسجدًا تتحدث فيه عندنا[١٨٠].

وجاء عند البيهقي رواية يتبين منها خطورة الأمر الذي بُني من أجله المسجد، فقد طلب أبوعامر الفاسق من جماعته أهل النفاق، أن يبنوا مسجدًا ويجمعوا ما استطاعوا من القوة والسلاح، وأنه ذاهب إلى قيصر الروم فيأتي منه بجند الروم، فيخرج رسول الله ﷺ وأصحابه من المدينة[١٨١].

وجاء عند السمهودي أن أبا عامر كتب إلى قومه من المنافقين وهو بالشام أن يبنوا مسجدًا مقاومة لمسجد قباء وتحقيرًا له، "فإني سآتي بجيش أُخرج به محمدًا وأصحابه من المدينة"، فبنوه وقالوا: سيأتي أبو عامر يصلي فيه ونتخذه معبدًا، وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ١٠٧][١٨٢].

---

(١٧٩) أبو عامر: هو عمرو بن صيفي من بني حارثة من الأوس، كان يعرف بالجاهلية بالراهب، فأضمر النفاق وقدم مع قريش يوم أحد محاربًا لرسول الله ﷺ، فسماه رسول الله "الفاسق". انظر ابن الأثير، أسد الغابة، ٦٢/٢ – ٦٣ (ترجمة حنظلة بن أبي عامر).

(١٨٠) انظر الواقدي، المغازي، ١٠٤٨/٣– ١٠٤٩.

(١٨١) البيهقي، دلائل النبوة، ٢٦٢/٥ – ٢٦٣.

(١٨٢) علي بن عبدالله السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق: قاسم السامرائي، الطبعة الأولى (د. م، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ١٦٣/٣.

وبعد أن قضى رسول الله ﷺ على فتنة مسجد الضرار، وكبت الله القائمين عليه، تحرك من ذي أوان، وعند ثنية الوداع استقبله أهل المدينة فرحًا بمقدمه، فجعل النساء والأطفال والولائد ينشدون:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع(١٨٣)

ويضيف ابن عقبة أنه لما دنا رسول الله ﷺ من المدينة، تلقاه عامة الذين تخلفوا عنه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه، لا تكلموا رجلاً منهم ولا تجالسوهم حتى آذن لكم ... فمكثوا على ذلك أيامًا، ثم جعلوا يعتذرون إلى رسول الله ﷺ بالجهد والأسقام، ويحلفون له فرحمهم، واستغفر لهم(١٨٤).

ودخل رسول الله ﷺ المدينة صباحًا، وكان من عادته إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فجاء المخلفون، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فيقبل منهم علانيتهم وإيمانهم، ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله(١٨٥).

أما الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ من غير شك ولا ارتياب ولكن أبطأت بهم النية وهم: كعب بن مالك ومرارة

(١٨٣) انظر، البخاري، الصحيح، ص ٩١٣-٩١٤، (ح:٤٤٢٦، ٤٤٢٧)؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٥/٢٦٥ - ٢٦٦؛ الصالحي، سبل الهدى، ٥/٤٦٩.

(١٨٤) موسى بن عقبة، المغازي، ص٣٠٠.

(١٨٥) موسى بن عقبة، المغازي، ص٣٠٢؛ انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/١٨٧.

بن الربيع وهلال بن أمية، فقد قابلوا رسول الله ﷺ حال وصوله المدينة واعتذروا إليه، ولكنه لم يعذرهم، وترك أمرهم إلى الله، وطلب إلى المسلمين ألا يخالطوهم، وفي وقت لاحق طلب إليهم اعتزال زوجاتهم، وبعد خمسين ليلة من العذاب النفسي، والعزلة الاجتماعية، والشفقة من سخط الله وعقوبته، تاب الله عليهم، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [**التوبة**: ١١٨] (١٨٦).

لقد كانت غزوة العُسرة هي آخر مغازي رسول الله ﷺ في سبيل الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه وتثبيت دعائم الأمن في أرجاء دولته، إذ إنه في هذه السنة أي السنة التاسعة من الهجرة تمكن النبي ﷺ من بسط كامل السيطرة تقريبًا على شبه الجزيرة العربية؛ وأصبح يتطلع إلى مد نفوذ الإسلام خارجها.

(١٨٦) ابن هشام، السيرة النبوية، ٤/١٨٩-١٩٠.

الخاتمة:

إن العرض السابق لأحداث غزوة العُسرة، يبين بوضوح، أن المصادر التي تناولت الغزوة تكاد تجمع على تسميتها بغزوة تبوك، وهذا يعود إلى أن الجيش توقف في تبوك ولم يتعداها. ولكن عند إمعان النظر في سياق الأحداث فإن من المناسب جدًا تسميتها بغزوة العُسرة، سيما وأن القرآن الكريم أشار إلى العُسرة التي رافقت إعداد الحملة. وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧] .

والغزوة بطبيعة الحال لم تكن وجهتها تبوك، بل الشام حيث الروم، لأن الهدف الرئيس كان دفع خطر الروم، إذ تواترت الأخبار عن هجوم الروم الوشيك على المسلمين في المدينة، وليس الأمر كما زعم الواقدي بأن خبر خطر الروم كان مجرد إشاعة كاذبة، ودليل ذلك ما جاء في سورة التوبة من إشعار للمسلمين بالخطر الوشيك واستنهاض هممهم وحضهم على دفعه، ولذلك بادر الرسول ﷺ إلى الدعوة إلى الجهاد واستنفار المسلمين في المدينة وما حولها للنهوض لمقارعة العدو ونقل المعركة إلى دياره.

وقد بذل المسلمون كل ما يستطيعون من جهد ومال من أجل تجهيز الغزوة بكل ما تحتاجه، حتى أن بعض النساء تصدقن بحليهن لدعم المجهود الحربي.

وفي غمرة حماس المسلمين وتنافسهم في إكمال ما تتطلبه الغزوة من الاستعداد، ظهرت جماعة من المنافقين تخذل

المسلمين وتثبطهم عن الخروج لمواجهة الروم، وتشعرهم بعدم التكافؤ بين الفريقين! ولم تقف نواياهم السيئة عند حد التخذيل والتثبيط، بل تعدى الأمر ذلك إلى محاولة اغتيال رسول الله ﷺ وهو في طريق عودته إلى المدينة.

أما ما أشارت إليه المصادر عن شدة الحر والجدب والقحط، الذي حدث في الغزوة، وأنها كانت في حَمَّارة القيظ، فلا شك في صحتها ولكنها لم تكن دقيقة في تحديد الشهر الذي وقعت فيه؛ لأنه إذا كانت الغزوة في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة واستمرت أحداثها حتى رمضان، فإن ما يقابلها من الشهور في التاريخ الميلادي: أكتوبر ونوفمبر وديسمبر، ومحال أن تكون هذه الأشهر من أشهر الصيف، بل هي شهور الخريف وطلائع الشتاء. لذلك فإن وصف وقت حدوث الغزوة بأنه في رجب وكان شديد الحر ففي هذا نظر، أي أن الغزوة على الأرجح لم تكن في شهر رجب بل قبله.

لذلك فإنه لابد أن الغزوة حدثت في شهر ربيع الثاني أو جمادى الأولى اللذين يوافقان شهري يوليو وأغسطس الميلاديين، وهما وقت نضج الثمار وموسم الخراف. وإذا جاز قبول هذه الفرضية فإن ذلك يتوافق تمامًا مع ما صرح به القرآن الكريم من أن الغزوة كانت في شدة الحر وحَمَّارة القيظ. وذلك في قوله تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿**وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ**﴾ [**التوبة**: ٨١] .

وكذلك الأمر فيما قيل عن صعوبة الأحوال المعاشية، وأن النفر من المسلمين كانوا يقتسمون فيما بينهم التمرة الواحدة، ويمصون النواة الواحدة ويشربون عليها الماء. كل هذه صور لا يمكن الأخذ بها على إطلاقها، فلا بد أنها على قدر من المبالغة. لأن المجاعة حدثت مرة واحدة، وأمكن التغلب عليها ببركة دعاء الرسول ﷺ حيث أمرهم بجمع ما تبقى لديهم من أطعمة ودعا لها بالبركة، وزالت المسغبة، لذلك فلم تكن حالة المجاعة ملازمة للجيش طوال مسيرته الشاقة. وكذلك القول فيما يخص ندرة الماء، حيث إن الرسول ﷺ استقى لهم مرة أو مرتين، وأمطرت السماء وشرب الناس وتزودوا حاجتهم منه.

ويلاحظ أنه على الرغم من معاناة أفراد الجيش من الجوع والمسغبة إلا أنه لم تسجل سوى حالة وفاة واحدة بين أفراده، ولم تفصح المصادر عن سببها.

ومثل ذلك فيما يتعلق بالإبل والخيل التي قيل إنها بلغت الألوف، لم تذكر المصادر نفوق شيء منها سوى حالتين، وليست معروفة أسبابها، علمًا بأن المصادر ذاتها كانت تتحدث عن الجدب والقحط في سنة الغزوة، لذلك كان من المتوقع أن تسجل بعض حالات موت للحيوانات جوعًا أو عطشًا! كذلك فإن المصادر ذاتها لم تبين للقارئ كيف تم تأمين العلف والمقادير الكبيرة من الماء لوسائط النقل من إبل وخيل.

يضاف إلى ذلك أن المصادر لم تقدم معلومات دقيقة يمكن الاعتماد عليها فيما يخص عدد أفراد الجيش فهي تذكر أعدادًا متفاوتة ما بين العشرة آلاف وحتى السبعين ألفًا! والمبالغة في ذلك لا ينقصها الدليل، والراجح والله أعلم أن جيش غزوة العُسرة كان في حدود خمسة عشر ألفًا، وذلك بناءً على المعطيات الموضوعية التي سبقت الإشارة إليها في ثنايا البحث.

والواضح أنه في ظل عدم وجود معلومات دقيقة وموثوقة عن غزوة العُسرة، وخاصة فيما يتعلق بوقتها، وأسبابها، وعدة جيشها؛ فإن من الصعب تقديم صورة واضحة عن الغزوة بشكل مقنع للباحث والقارئ.

لكن الأمر الذي لا يمكن الخلاف حوله هو أن غزوة العُسرة حققت نتائج إيجابية في غاية الأهمية على مختلف الصُعد، ولعل أبرزها الصعيدان المعنوي والسياسي، ففي الجانب المعنوي وصلت الرسالة إلى الروم من أن دولة المسلمين في مستوى التحدي، وأنها على استعداد تام للمواجهة والدفاع عن نفسها مهما كانت الظروف، كما أنها رفعت الروح المعنوية للمسلمين.

أما في الجانب السياسي فقد تم لدولة المدينة إخضاع مستوطنات شمال الحجاز التي كانت خاضعة لنفوذ الروم، وأقرت بسلطة المسلمين على أراضيها، وأقرت كذلك بدفع الجزية. ونتيجة لتلك الغزوة فقد أصبحت للمسلمين وللمرة الأولى حدود مشتركة مع الإمبراطورية الرومية. وهذا بمثابة

المقدمة العملية لحركة الفتوح الإسلامية في عصر الخلافة الراشدة. لأن الرسول ﷺ في تلك الغزوة قد فتح الباب مشرعًا للجهاد خارج شبه جزيرة العرب، ونجح كذلك في كسر حاجز الخوف من الروم، والاستعداد لمواجهتهم في مقبل الأيام.

الملحق

خارطة تقريبية لمستوطنات شمال الحجاز في عصر النبي ﷺ، وتظهر في الخارطة تبوك التي انتهت إليها غزوة العُسرة

